مجموعة قصصية

ما تخفيه لنا الأيام

زهير زدوق

الكتاب : ما تخفيه لنا الأيام

المؤلف : زهير زدوق

الطبعة :2021

تصميم الغلاف : محمد زمراني

إهداء

إلى من دخلت بيتا فقالت الأضواء:

اطفئوني' فلا حاجة لكم بي.

إلى أمي الحبيبة

دمت بألف خير يا بسمتي.

"إن أكبر هزيمة في حياتي هي حرماني من متعة القراءة بعد ضعف نظري."

نجيب محفوظ

***

"الكتب أجمل أثاث في البيت حتى إذا لم نقرأها."

أبو تمام

كلمات لم تكتمل

فتح الليل أجنحته فغمر الأرض ظلام دامس، جلس عادل كعادته كل ليلة بجانب النافذة المطلة على الشارع، وفنجان القهوة يستقر فوق المكتب يشرب منه رشفة بين الفينة والأخرى، فتح دفتي دفتره وأمسك القلم بين يديه وأخذ يبحث في خياله عن قصة ينسج خيوطها، أفرغ في جوفه ما تبقى من كأس القهوة الدافئة، وبدأ يكتب.

***

لطالما كان يحذرني أبي ومن قبله جدي رحمه الله بأن لا أقرب تلك الغرفة، لكن فضولي واندفاعي نحو أشياء لا أعرفها جعلني أخطط منذ أيام للدخول واكتشاف ما تحتويه تلك الغرفة، حتى جاءت تلك الليلة التي فتحت بابها، وحينها انفتحت أبواب الجحيم في وجهي.

- اسمع يا بني سيأتي دورك أيضًا لتكتشف سر تلك الغرفة، وستتمنى لو تراجعت عن اندفاعك هذا، وأنك لم تدخلها قط، تجاهل كل صوت يناديك من تلك الغرفة، وتجاهل كل الكوابيس المتعلقة بها، فكثير من الأحيان يا بني يكون جهلنا لبعض الأشياء وعدم التعمق في معرفتها أرحم لنا.

صمت لحظات ثم أردف قائلا:

- لكن تأكد أنه سيأتي يوم وتتسرب إليك فيه بعض المعلومات الصادمة والتي لا يتقبلها العقل.

كانت هذه كلمات جدي حين لاحظ رغبتي الملحة في اكتشاف تلك الغرفة، وكانت تلك آخر كلمات جمعتني به فقد مات قبل أسبوع، وموته قد أنساني أمر تلك الغرفة، إلى أن جاءت تلك الليلة حينما بدأت تراودني بعض الكوابيس والهلاوس الغريبة، وكلما ذهبت لغرفة جدي التي كانت على بعد مترين من تلك الغرفة العجيبة، كنت أسمع أصوات كأنها تناديني، تجاهلت

الأمر في بدايته، ولكن مع الوقت لم أستطع التحمل، وكانت الغلبة للرغبة التي تحثني وتدفعني نحو الغرفة، كان لها باب ضخم له نقوش عجيبة لم يسبق ورأيت مثلها.

كنت أنتظر آخر أيام الأسبوع كمن اعترف بحبه لفتاة في رسالة وينتظر ردها، بل وأكثر من ذلك، ولكن الحظ لعب بجانبي هذه المرة، فلن أضطر الى الانتظار حتى آخر أيام الأسبوع، بل سأبدأ مهمتي هذه الليلة، فقد اتصل أبي وقال إنه سيضطر الليلة للمبيت هو وأمي في منزل جدتي بسبب مرضها.

كنت أعرف أن المفاتيح في غرفة أبي، فقد رأيته حين قام بنقلها من غرفة جدي إلى غرفته، دخلت الغرفة وبقيت أبحث عن المفاتيح ما يقارب الربع ساعة، وأخيراً وجدتهم، كانت تلك أول مرة أمسكهم في يدي كانوا ضخماً أكثر مما تصورت، بحجم ذراع رجل بالغ.

وقفت أمام باب تلك الغرفة العجيبة وأخذت أدخل المفتاح الكبير في ثقب الباب كان هناك قفلان وكان القفل الثاني في منتصف الباب ولم أستطع الوصول اليه، جلبت الكرسي وصعدت فوقه لكي أدخل المفتاح في ثقب الباب الثاني أدرت المفتاح ونزلت من الكرسي، ترددت قليلا لكن في الأخير

أدرت المفتاح، كان الباب ضخما وثقيلاً، دفعته بكل ما أوتيت من جهد، ولكنه ظل ثابتاً شامخا في مكانه، أعدت المحاولة أكثر من مرة حتى بدأ الباب ينفتح شيئا فشيئا فأحسست بريح بارد تخرج من الغرفة المظلمة، عدت أدراجي جاريا بسرعة وسط المنزل أبحث عن المصباح عدت بنفس السرعة التي ذهبت بها، كنت متلهفا لاكتشاف ما بالداخل، وقفت لبرهة أمام عتبة الغرفة أسترجع أنفاسي خطيت خطوة إلى الداخل كان الظلام حالكا، أنرت المصباح وإذا بي أجد أحد أجزاء الغرفة له سور ذهبي وكتب متراصة على ذلك السور، كنت أدير رأسي لكي أرى ما يحتويه الجانب الأخر من الغرفة حتى انطفأ المصباح وأقفل الباب، وشعرت بشيء ما يتحرك بجانبي.

***

أفرغ عادل ما تبقى من كوب القهوة في جوفه، وعاد بجذعه إلى الوراء متكئ على الكرسي، وأخذ يفكر في نهاية لقصته، كانت الأفكار تتطاير في ذهنه، ولكنها أبت أن تخرج وظلت حبيسة، بقي على هذا الحال ينظر إلى القصة ويقرأها مرة ومرتين وأكثر، ولكنه بقي عاجزاً عن كتابة النهاية.

دقت الساعة واستقرت عقاربها على الرابعة صباحا، أغلق دفتي الدفتر الضخم الذي مُلأ بكتاباته، وأطفأ الأنوار وارتمى على السرير، تابع التفكير في نهاية لتلك القصة ولكن ليس هناك جديد فكل محاولاته باءت بالفشل كسابقتها، بدأ النوم يتسلل إلى جفونه فأغمض عينيه وذهب إلى تلك المساحة الصامتة.

جاء صديق عادل مرة أخرى، حل الليل وعادل كعادته جالس في المكتب ويطل من النافدة بجانبه على المارة الذين بدأ يقل عددهم شيئًا فشيئًا، فالظلام كان قد نشر عباءته معلنا انتهاء يوم قد يكون جميلاً لأحدهم وحزينًا لآخر، ظل عادل يراقب الأعداد القليلة من الناس كأنه يبحث في داخلهم عن قصة يخط سطورها في أوراقه البيضاء، نظر إلى ساعة الحائط بملل ليجدها قد تجاوزت الثانية عشر بدقائق قليلة، أخذ ينظر إلى الورقة الخالية من أي كتابات وألقى نظرة أخيرة من النافدة وهو يرفع القلم بيده، فظهرت له عجوز تمشي مسندة على عكازها الخشبي، استطاع بصعوبة أن يرى تلك التجاعيد المنتشرة في وجهها ويديها، وبعض الشعيرات البيضاء التي تسللت تحت الوشاح المستقر على رأسها، بقي عادل ينظر إلى تلك العجوز حتى اختفت وراء حائط العمارة، ورغم ذلك

استمر عادل في التحديق في نفس المكان وكأنه يفكر في شيء ما، فجأة استدار نحو دفتره وكتب في أعلى الورقة: العجوز، وبدأ يكتب.

***

إنها مخيفة وتثير اشمئزازي، لا أعلم لماذا أشعر بالرهبة عند رؤيتها، فهي تصر على مضايقتي كل يوم، أحاول احترامها ولكن لم تترك لي المجال، ربما هي في عمر الثمانينيات، تتكأ على عكازها القديم ولا تبخل كل يوم بزيارتي في مكان عملي منذ ما يقارب الشهر، وتسألني نفس السؤال الروتيني الذي لم يتغير وترحل بهدوء، لم تمل ولم تتعب تلك الهِرْدَبة من ذلك السؤال، "ماذا تفعلون بالدماء؟" وما عسانا نفعل بها؟ هل سنشربها مثلا؟ لم أستغرب من أمرها وكنت أعتقد أنها مريضة، فكثير ما طُرح عليّ هذا السؤال من عديد الأشخاص، أجبتها أول مرة أننا لا نفعل بها شيئا، نحرقه في المحرقة، هزت رأسها وقالت لي:

- هل تبيعني بعض منه؟

تركت ما في يدي ونظرت إليها بتعجب وقلت:

- ماذا تقولين؟ لم أفهم!

ردت ببرود:

- أريد بعض الدماء، ألستم تتخلصون منه بحرقه؟ بعني إياه إن شئت.

ظلت الدهشة ترتسم على وجهي وقلت:

- أعتذر لا أستطيع.

استدارت وخطت خطواتها الثقيلة، فظلت التساؤلات تتطاير في ذهني عن ماذا تريد أن تفعل تلك العجوز بالدماء؟ ولكن سرعان ما استطعت إقناع نفسي أنها مختلة ونسيت أمرها، في اليوم التالي جاءتني وقد رسمت على شفتيها بسمة وقالت:

- دكتور كمال أريد بعض الدماء.

استغربت لمعرفتها اسمي وأنا لم أتجاوز الشهرين في هذا المكان، تجاوزت استغرابي ولم أعر ذلك اهتماماً وأجبتها قائلا:

- سيدتي هذا مختبر للتحاليل الطبية وأنا كأخصائي يمنع عليّ أن أعطيك قطرة من الدم.

تحولت بسمتها إلى غضب وقالت:

- سأعطيك آخر فرصة، وإن لم تعطني ما أريد ستندم صدقني،

أحسست بالرعب يتسلل إلى داخلي فرجعت خطوات إلى الوراء وابتعدت منها متجاهلا، بينما ظلت هي متسمرة في مكانها للحظات وغادرت.

بعد أيام جاء صديقي علي في العمل، ليخبرني بأنه هناك عجوز تنتظرني أمام باب المختبر، خرجت لأجدها هي نفسها تلك المجنونة، وهذه المرة كانت ملامح وجهها مجمدة ولا تدل على أي تعبير، فقلت لها:

- ماذا تريدين يا...

لم أكد أكمل كلماتي تلك حتى رأيتها تمشي وأنا أتبعها ككلب مطيع، ولم أستطع أن أنبس ببنت شفة، ولم أكن أنا من يخطو تلك الخطوات، وبعد سير دام لأكثر من عشرين دقيقة، وجدت نفسي أجلس على كرسي وقد كبِّلت يداي ورجلاي، والمكان من حولي يكاد يكون مظلماً لولا تلك النافذة التي يتسلل من خلالها بعض النور، كانت رائحة غريبة تفوح من المكان، وتلك العجوز كانت تقف على بعد مترين مني وأمامها كانت طاولة لا

أعلم ماذا كانت تصنع فوقها، فقد حجب ظهرها الرؤيا عني، استدرت يمينا ففزعت مما رأت عيني، كان هناك مجموعة من الرؤوس بلا أجساد معلقة في الهواء، استدرت شمالا فإذا بي أرى مجموعة من الأجساد بلا رؤوس، تقف مستقيمة وكأنها معافاة، وتحت قدميها وضعت أنابيب تصل

بين الأجساد والرؤوس المقطعة، في داخل بعض الأنابيب يوجد سائل أحمر اللون، ربما كان دماً، وبعضها الآخر تحمل في داخلها سائل أخضر، أعدت نظري إلى تلك الأجساد ونظرت حولها لأرى إن كان هناك شيء يبقيها ثابتة، ولكن لم يكن هناك شيء، وكأن العجوز قرأت أفكاري فبينما أنظر إلى تلك الأجساد، خطى جسد منها بضعة خطوات نحوي، فلم أتملك نفسي وصدرت مني صرخة قوية مزقت أحشاء السكون، استدارت العجوز بكل برود وقالت :

- لا تخف لن يقترب منك أكثر إن كنت مطيعا.

- ماذا تريدين مني.

- كنت أريد دماً ولم تعطني إياه، وأنت اخترت هذا بنفسك.

- لا أستطيع أن أعطيك شيئا، ليس لي الحق في ذلك.

- لا مشكلة ها قد صارت لدي أكثر من خمس لترات مما أريد.

- ماذا تقصدين.

أخذت تقترب مني بخطوات بطيئة وهي تتكأ على عكازها حتى صارت بجانبي وهمست في أذني قائلة:

- لو أعطيتني ما طلبت منك سابقا لكنت بخير الآن، ولكن سأضطر لأخذ دمك، لأني أحتاجه بشدة.

بدأت نقاط العرق تتصبب من جبيني فأردفت العجوز قائلة وهي تشير بأصبع يدها إلى الأجسام:

- فكما ترى لدي عمل يجب أن أكمله.

ارتعدت فرائسي وأنا أسمع العبارة السابقة، ابتعدت مني وهي ترسم ابتسامة ماكرة في وجهها، رأيتها تأخذ شيئا في يدها اليسرى وتتكأ على العكاز بيدها اليمنى حتى اقتربت مني وقالت:

- أغمض عينيك، لا أظن أنك تريد رؤية هذا.

***

تجمدت الأفكار في عقل عادل مرة ثانية، وأَقفلت الكلمات في داخله منتظرة إيجاد رأس الخيط، فبدأ يفكر ويفكر، استمر على هذا الحال أكثر من نصف ساعة وهو جالس وعاجز على أن يكتب نهاية لتلك السطور، مال بظهره إلى الوراء متكئ على الكرسي والخيبة تملأ كيانه، خطف نظرة إلى النافدة وسرعان ما عاد ينظر إلى ذلك الشخص الغريب الدي رآه البارحة في حلمه، كان يقف وسط الشارع وينظر نحو النافدة إلى عادل في

الطابق الرابع، تابع عادل النظر إليه وهو يحاول أن يفترس ملامح وجهه، لكنه كان يرتدي جلبابا طويلا يمتد من فوق المنكب إلى حدو الكعبين، ومتصل في أعلاه بغطاء الرأس الذي أخفى وجهه فلم يستطع عادل رؤية شيء غير عينيه اللتان كانتا تلمعان، وبعد دقائق من تبادل النظرات، اختفى الجسد وتلاشى ليترك عادل في حيرة من أمره، حاول أن يقنع نفسه بأن ذلك مجرد وهم لسهره حتى هذا الوقت المتأخر من الليل، ولكن دلك الغريب عاد ليزوره في نومه ويقول له:

"لا تترك تلك الشخصيات معلقة"

جاء الليل، ذاك السواد الكادح، والساتر الفاضح، حيت يَبُث فيه المهمومون شكواهم، الليل روضة الفكر وبحر عميق تسبح فيه بنات الأفكار، وفي الليل سكون، ولكن ذلك السكون يحمل في أعماقه الكثير من المشاعر، فهدوءه يجعلنا نتذكر كل ما مر بنا، قد تكون خيبة، قد يكون غدراً، وقد تكون كلمة قالها أحدهم، وبدون أن يشعر هو ظلت عالقة في أعماقنا تنبش ذلك الجرح القديم الذي ظننا أنه قد شفي، وليل عادل مليء بالتساؤلات، يقول في داخله: من هو ذلك الشخص الذي ظهر لي ليلة البارحة وسط

الشارع؟ وماذا كان يعني حين أتاني في المنام وقال لا تترك تلك الشخصيات معلقة؟ ظل يطرد تلك التساؤلات من ذهنه ولكن سرعان ما تعود لتجعله في حيرة من أمره وتعكر مزاجه، أخذ يرتشف رشفات متتالية من كوب الشاي الدافئ وهو يعيد قراءة قصصه السابقة والمفتقرة للنهاية، وكلما فكر في نهاية عجزعن كتابة كلمة واحدة، وكأن الحروف في خصام معه، وقف من على الكرسي وتوجه إلى المطبخ ليحضر كوب قهوة دافئ علها تساعده في كتابة قصة أخرى، جلس في مكانه المعتاد يراقب المارة من نافذة غرفته محاولا الحصول على فكرة ما، أمسك القلم بيده وحول نظره من النافدة إلى الدفتر وأخذ يكتب.

***

كان جالساً على الكرسي جلسة ملكية ويحمل في يده كأس نبيذ، بينما كان حسن يجثو هو وعائلته الصغيرة على ركابهم وقد كبلت أيديهم، وبإشارة منه قطع رأس الابن الذي لم يتجاوز التاسعة من عمره والذي لم يرتكب ذنباً، وبإشارة أخرى ذبحت الزوجة، لم يبدي حسن أي ردة فعل ظل ينظر إلى الدماء وهي تسيل من الأعناق المقطوعة، ولم ينطق بكلمة، توجه إليه

أحد الحراس وأمسك بشعره ورفعه وبقي ينتظر إشارة أخرى، ولكن الجالس نهض من مكانه وخرج من الغرفة الكبيرة وهو يقول:

- ارموه في القمامة.

هكذا قالها بكل برود، فقد اعتاد على فعل أشياء كهذه إلى أن أصبح قلبه كالحجارة أو أشد، أما حسن فلا زال ينظر إلى عائلته الصغيرة وملامح وجهه متجمدة وعيونه ملأتها الدموع، ليست أي دموع بل تلك التي تنهمر من الداخل.

وقف مصطفى من مكانه بعد أن قل عدد المصلين وقطع الخطوات متوجها إلى إمام المسجد الذي أصبح تربطه به علاقة جيدة في الآونة الأخيرة، خصوصاً بعد أن علم الإمام بقصة مصطفى وأراد أن يرشده إلى الطريق الصحيح ويتوب إلى الله بعد كل ما ارتكبه، ألقى مصطفى التحية على الإمام وجلس أمامه وقابله الإمام بوجهه البشوش قائلا:

- كيف حالك يا مصطفى.

- الحمد لله بخير.

- تبدو بحال أفضل مما كنت عليه هل زرت الطبيب اليوم؟

- نعم زرته، قال إن حالتي في تحسن مستمر، وحتى تلك الأدوية أعطت مفعولها وبدأت تطرد تلك الكوابيس، يعود الفضل لك بعد الله.

- الحمد لله يا بني.

عدَّل مصطفى من جلسته وتربع فاسترسل الإمام في حديثه الذي يجمعهما كل يوم خميس بعد صلاة الظهر.

خرج مصطفى من المسجد منشرح الصدر وقلبه مليء بالإيمان، أخذت قدماه تبتلع الخطى متوجها إلى المنزل، وكلما مر بدكان ألقى عليه صاحبه التحية احتراماً لمكانة مصطفى مما يفعله من خير، وصل المنزل وما إن فتح الباب حتى انقضت عليه أيادي الصغيرة ياسمين، قالت له:

- تأخرت يا أبي هل جلبت لي بسكويت الشكولاتة.

- نسيتها يا صغيرتي.

تحولت ملامح الصغيرة من الفرح إلى العتاب وما إن رءاها مصطفى حزينة حتى جذب يده من خلف ظهره وانفرجت أسارير الصغيرة مرة ثانية بعد أن رأت بسكويتها المفضلة، رسمت قبلة على خد أبيها وتوجه الإثنين إلى المطبخ حيث الأم، وقال مصطفى:

- مرحبا جميلتي.

- مرحبا عزيزي تأخرت اليوم.

- أخذنا الحديث أنا والشيخ كريم فلم أشعر بالوقت.

- وفقكم الله، اتصلت أمي قبل قليل وقالت إن أذهب لكي أبيت عندها الليلة لكي أساعدها في بعض الأشغال.

- حسنا لا مشكلة سأقوم بتوصيلكم.

- شكرا لك حبيبي.

رافقهما مصطفى حتى الباب وألقى التحية على حماته التي تعيش لوحدها بعد أن مات زوجها منذ ما يقارب الخمس سنين، جلس وتبادل الحديث معها، بعد دقائق ودعهم مصطفى رغم إصرار حماته على أن يجلس حتى يحتسي الشاي، إلا أنه غادر مدَّعيا أن لديه مشاغل، ركب السيارة وفي طريقة انتابه شعور غريب، وعادت تلك الصور تتكون أمام عينيه، مرت عليها أكثر من عشر سنوات ولا زال طيفها يحط رحاله بعض الأحيان أمامه، وكانت الصور لامرأة ملقية على الأرض مذبوحة، وبجانب جثتها كانت جثة ابن لم يتجاوز التسع سنوات وقد قطع رأسه، ورجل على بعد خطوات منهم ينظر إليهم ويبدو كالحاضر الغائب من إثر الصدمة، فقد

ذبحت عائلته الصغيرة أمام عينيه، أما مصطفى فقد كان هو صاحب تلك المجزرة.

قبل عشر سنوات من الآن كان مصطفى يمتلك الكثير من الشركات التي تحقق نجاحاً مبهراً، وكان يفعل أي شيء من أجل أن يحافظ على نجاح شركاته، وفي يوم وصلته أخبار من أحد العمال، اسمه مراد، أن صديقه حسن يقوم بسرد معلومات لشركات أخرى مما سيؤدي إلى خسارة الشركة إن استمر الأمر على هذا الحال، ولم يكن الخبر صحيحا لأن مراد كان يريد أن يحل مكان حسن وادعى ذلك ليشوه سمعته، ولكن مصطفى لم ينتظر ليسمع من صديقه شيئاً وقام بدعوته إلى منزله الكبير والضخم على أساس أنه يقيم حفلاً كبيراً بمناسبة نجاح شركاته، وصل حسن في الوقت المحدد للحفل وما إن دخل حتى وجد المكان هادئا، ولا يوجد أي شيء يوحي على مناسبة الحفل، قاده أحد الحراس هو وعائلته الصغيرة إلى غرفة ضخمة، يجلس فيها مصطفى على كرسيه الفخم ويحمل كأس مليئة بالنبيذ، ما إن دخل حسن حتى انقض عليه رجال مصطفى، وظل حسن يقسم ويقسم أنه لم يفعل شيئاً، لكن مصطفى أمضى في فعلته تلك ولم يكتشف الحقيقة إلا بعد خمس سنوات حينما كان مراد على فراش الموت، وأخبر بعض أقاربه أن يوصلوا رسالة إلى مصطفى يعترف فيها بكل ما

فعله لتشويه سمعة حسن، وأنه لم يفعل شيئا بل كان يعمل بكل صدق وإخلاص.

وهنا كان المنعرج لحياة مصطفى، مرت عليه تلك السنة كالجحيم ولم يكن يخرج من منزله، انعزل عن العالم بسبب معرفته لحقيقة ظلمه لصديقه حسن، كان قد ارتكب جرائم أبشع من تلك فيما سبق، لكن ما فعله بحسن جعله يتغير بنسبة كبيرة ويتحول من التجبر إلى الضعف، وبعد أن مرت عليه سنة وهو منعزل في غرفته استطاعت عائلته إقناعه بصعوبة بزيارة طبيب نفسي، وبعد أيام بدأ حاله يتغير شيئا فشيئا، والتزم الصلاة في وقتها وسخر كل وقته لفعل الخير وبناء المساجد.

وصل مصطفي إلى المنزل، ولم يكن يعلم أن ذلك المكان الدي طالما شعر فيه بالأمان مع زوجته وابنته الصغيرة، سيتحول هذه الليلة إلى جحيم، توجه إلى الحمام وتوضأ ووضع السجادة ليصلي صلاة العشاء وبعض الركعات من قيام الليل، كان الوقت قد تأخر لكي يذهب إلى المسجد، لم يكن يعلم أن بانتهاء صلاته سيكون بانتظاره شخص جالس على الكرسي نفس الجلسة التي كان يجلسها هو قبل سنوات من الآن.

- مرحبا سيد مصطفى.

أتاه الصوت من خلف ظهره بعد أن أكمل صلاته، التفت ليتوجس مما رأى، كان هناك رجل جالس على الكرسي، نحيف الوجه، له عينان تدلان على الحماقة، وله حاجبان كثيفا الشعر، وشعر رأسه كثّ، بعضه يغطي إحدى عينيه، ازداد خوف مصطفى بعد أن رأى مسدساً يستقر فوق ركبة الغريب الذي لم يستطع معرفته، فقال الغريب قاطعاً لذلك الصمت:

- ألن ترد التحية؟

ابتلع حسن ريقه وقال:

- من أنت وماذا تريد؟

- لا يعقل، أنسيتني بهذه السهولة والسرعة!

- ماذا تعني؟

- لقد خاب ظني بك يا مصطفى، كنت أعتقد أن صداقتنا لن تمحى من ذاكرتك بكل هذه السرعة.

- اسمع خد ما تريد وابتعد.

ضحك الغريب وقال له:

- أريدك أنت يا سيد مصطفى.

أراد مصطفى أن ينهض من فوق سجادته، لكن الغريب صرخ في وجهه لكي يعود إلى مكانه وقال وهو يبعد شعر رأسه على إحدى عينيه:

- أتتذكر نفسك قبل عشر سنوات من الآن كيف كنت، أتتذكر صديقك حسن وعائلته التي ذبحتها أمام أنظاره.

تسللت حبيبات من العرق على وجه مصطفى فأردف الغريب قائلا:

- تغيرت كثيرا يا صديقي، سألت عنك في الحي وقالوا إنك رجل طيب، أتساءل إن عرفوا ماضيك الأسود كيف سيتعاملون معك؟ ولكن أحييك، أعجبني ما أنت عليه الآن.

قال له مصطفى متسائلا بعد أن أنهى الغريب عبارته الأخيرة:

- من أنت.

- ألا زلت لم تعرفني؟

- حسن؟

- حسن مات تلك الليلة مع زوجته وابنه.

- أعلم أني ارتكبت ذنباً لا يغفر يا حسن، لم أعلم بالحقيقة إلا بعد موت مراد، فقد ترك رسالة يخبرني فيها بما فعله بك، وأنك كنت بريء مما قاله

عليك، أعلم أني كنت متجبراً، وملذات الدنيا أعمتني، لكن صدقني بعد أن علمت بالحقيقة قضيت سنة بأكملها وسط جدران غرفتي، ورغم أني ارتكبت الكثير من الجرائم، ولكن ظل ذنب ما فعلته بك يطاردني، وظلت الذكريات الجميلة التي أتقاسمها معك في بداية نجاحي تخنقني كلما تذكرتها، جربت أكتر من مرة أن أضع حداً لحياتي، كنت أتعذب، أشعر كأن الغرفة تطبق علي جدرانها، جربت أن أنتحر أكثر من مرة، لكن كل مرة كان شيئا ما يصدني، لا أعلم إن كان الفشل أو الأمل، في الأخير اكتشفت أن الهرب ليس الحل، تمنيت أن تعود الأيام إلى تلك الحياة البسيطة التي كنت أعيشها، وأن لا أصل الى ذلك النجاح لكي لا أفعل كل ما فعلت، ولكن كان الأوان قد فات، سألت الكثير من الشيوخ، وكلما أخبرني أحد بشيء يكفر ذنبي أسرعت إلى فعله، ولم تخطر ببالي يوماً فكرة أنك لازلت على قيد الحياة، وصدقني لو حدت وعرفت ذلك، لبحث عنك في كل مكان.

هب حسن واقفاً من مكانه وهو يصفق على مصطفى، عاد وقبع في مكانه وهو يزيح شعره الكثيف الذي حجب عنه الرؤيا وقال:

- هذه الكلمات كان يجب أن تفكر فيها قبل أن تحرمني من زوجتي وابني، هذه الكلمات يا صديقي تستطيع أن تقولها لشخص حرمته من سيارة أو مال أو منزل، ولا تقال لشخص قتلت عائلته، لا تقال لشخص فقد كل ما يملك في هذه الحياة، سيكون ذلك مجرد مضيعة للوقت يا صديقي كما فعلت الآن، أتعلم معنى أن تعجب بفتاة وتظل تراقبها حتى تعلم مكان إقامتها، وتحاول جاهداً أن تتكلم معها وكل مرة يصدك الخجل فتحاربه وتفوز وتتبادل معها بعض الكلمات، لتمر أيام وتصبح حبيبتك، وتمر الليالي ليلا يطويه نهار، ونهار يطويه الليل، فتتقدم لخطبتها، لتصبح زوجتك يجمعكما سقف واحد فترزقا بطفل كالملاك، وتتمنى أن تمر ساعات العمل بسرعة لتحظى بوقت كبير مع زوجتك وابنتك، وفي الأخير يأتي صديقك ويضع حداً لكل هذا الكم الهائل من الحب، أتعلم ما معنى ذلك يا سيد مصطفى؟

مسح حسن دمعات تسللت من عينيه وأردف قائلا وهو يأخذ بيده صورة لمصطفى وزوجته وابنه من الطاولة بجانبه:

- أنت تعلم هذا، فلديك زوجة وطفلة، وبلا شك ستكون قد فهمت شعوري.

- سامحني يا حسن، وإن لم تقبل اعتذاري فافعل ما شئت.

انتصب حسن من مكانه متوجهاً إلى مصطفى، ولكمه بقوة بقبضة المسدس على رأسه حتى سقط أرضاً وقال حسن:

- بالطبع لن أسامحك يا أبله.

***

كثير من الأفكار تحلق في سماء ذهن عادل حول خاتمة يختم بها تلك الكلمات، ولكن كلما قوس سهماً من سهامه نحو فكرة ليصطادها، أخفق في إصابتها ككل مرة، وظل ينظر إلى القصة ويقرأها من أولها إلى آخرها، ليفقد الأمل ويقفل دفتي كتابه ويميل بجذعه إلى الوراء واتكأ على الكرسي، فجأة سمع صوت طرق على خزانة الملابس، فرفع بصره إلى مصدر الصوت وقال في نفسه أنه مجرد توهم، لم تمر بضع ثواني حتى سمع نفس الصوت مرة أخرى، وقف من مكانه وتوجه إلى الخزانة بخطى بطيئة إلى أن استقرت قدماه أمام أبوابها، وأرسل إحدى يديه إلى مقبض الباب وفتحه بتريث وأرسل يده الأخرى ليزيح سترته ويكشف ما وراءها

فإذا بيد تجذبه بقوة نحوها، وقُفل باب الخزانة بقوة ليجد عادل نفسه في مكان عجيب لم يسبق أن رأى مثله من قبل.

كان ملقياً على أرض عذراء وسط ثلاثة منازل طينية، وبين كل منزل وآخر مسافة العشر أمتار أو أكثر، ولو التقطت صورة من الأعلى لرأيت تلك المنازل تشكل مثلثا، وعادل يتوسط ذلك المثلث ولا يعلم ما يجري، وعلى بعد خطوات منه هناك رجل يرتدي جلباباً ويحمل عصا، كأنها هي التي تتكأ عليه لا هو، أو كأنه كان يُثبِّت بها الأرض، كانت جدران البيوت متصدعة ومحتجّة على قلة الاهتمام، وفي طرف كل بيت كانت جرة ماء حزينة بئيسة قد جف ماءها ولم تعد صالحة، وكأن النسيان أقام حفلة جماعية في هذه البيوت فلم يعد للذكريات أي أثر، وقف عادل فعاد بذاكرته إلى الوراء يراجع ما حدث له منذ قليل، قرص نفسه لكي يتأكد أنه ليس في حلم، فنظر إلى ساعة يده فإذا هي متوقفة، لاح ببصره إلى البعيد فلم يرى شيئا غير المساحة الشاسعة التي يبدو أنه ليس لها حدود، حتى لو مشى عليها مسيرة شهر، فتوجه إلى إحدى البيوت الثلاثة، ووقف أمام بابها الذي كان العنكبوت قد أقفله بخيوطه، باشر عادل في إبعاد الخيوط ليدخل، بينما كان الرجل ذو الجلباب على بعد خطوات منه يراقبه وعادل لا يستطيع رؤيته، دخل البيت وكانت هناك نافذة صغيرة يتسلل منها بعض النور

ليزيل العتمة الطاغية على المكان، لوح الرجل ذو الجلباب بيده في الهواء ورسم شيئا، فظهر في جانب من جوانب البيت شاشة كبيرة تُظهر شاب لم يتجاوز السابعة عشر من عمره كان يقف في مكان غريب، فإذا نظرت إلى الجانب الأيمن تجد نفسك أمام أسوار ذهبية تتراص عليها الكتب، فتعتقد أنك في غرفة، وإذا حولت بصرك إلى الجانب الآخر تجد نفسك في عالم آخر، كانت هناك غابة تكاد تكون شبيهة بغابة ألمانيا المعروفة باسم الغابة السوداء، حيث لا يكاد يصل أي شعاع من ضوء الشمس من خلال الأشجار الكثيفة، وبين تلك الأشجار كان فارس يشق الطريق متوجهاً إلى ذلك الطفل، وما إن اقترب منه حتى انطفأ المصباح، وأقفل الباب الضخم.

كان عادل يرى ما يجري أمام عينيه، ويحاول تذكر تلك الأحداث التي ليست بغريبة عليه، فتذكر أن كل ما يجري كان قد كتبه في ليلة ليست ببعيدة في دفتره، وسرعان ما فهم أمر ذلك الرجل ذو الجلباب الذي قال له تلك العبارة في حلمه، والذي ظهر له وسط الشارع في تلك الليلة، التفت عادل يميناً ويساراً يبحث عن شيء ما، في نفس الوقت لوح ذو الجلباب الفضفاض بيده في الهواء، وظهر أمام عادل ورقة وقلم، أسرع عادل في

أخذها وهو يعلم يقينا أن الرجل في مكان ما في هذا البيت، عاد بضعة خطوات إلى الوراء، وجلس على الأرض متكأ بظهره على الحائط المهترئ وبدأ يكتب.

***

أحسست بيد صلبة تجذبني بقوة لم أستطع مقاومتها، حتى وجدت نفسي مع شخص غريب فوق فرس سريعة، لم أستطع رؤية ملامح ذلك الغريب، لم أعلم شيئاً عن وجهة الفرس، وفجأة فقدت الوعي لأستيقظ وأنا جالس على الكرسي، وحشود من الأشخاص الغرباء يلتفون حولي، أحلم هذا أم ماذا؟ أناس ذو بنية غريبة، يمتلكون عين واحدة تحتل المساحة الأكبر في وجوههم وبعضهم الآخر يمتلك ثلاثة عيون صغيرة تشكل مثلثا في وجوههم، كنت أجول ببصري عليهم وأفترس ملامح بعضهم، وبعضهم الآخر كان دون ملامح، فقد كان السواد يحتل وجوههم، وعلى عكسهم كان البياض يستولى على بعضهم الآخر وكأنهم الليل والنهار، أدرت رأسي نحو اليمين حيث كان هناك رجال يجلسون على كراسي غريبة، لكن تلك الغرابة لم تمنعها أن تكون فخمة، وأخيرا استطعت أن ألمح بعضهم، كانت

أجسادهم كالبشر العاديين، ومع رؤيتي لهم انسحب بعض من الخوف والقلق الذي جعل له مكان في داخلي، رأيت شخصا كان مألوفا يجلس في منتصف القوم، افترست ملامحه جيداً، فوضعت يدي على فمي لأكتم الصرخة التي أحسست أنها ستنطلق، بقي السكون سيد الموقف والكل ينظر إلى الآخر كانت التساؤلات تتناطح فوق رأسي، بينما هو كان تابتا شامخاً، فقطعت السكون وأنا أقف من مكاني وأقول:

- جدي.

وقف بدوره من مكانه فوقف كل الجلوس الذين كانوا بجانبه، وقطع الخطى الفاصلة بيني وبينه بثبات ملكٍ، حتى اقترب مني وقال:

- اشتقت لك يا بني.

عانقني عناقاً حاراً وهو يضيف قائلا:

- كنت متأكداً أنك ستفعل هذا، فلطالما رأيت ذلك في عيونك.

أخذني من يدي حتى أجلسني بجانبه وقال:

- اسمع يا بني أعلم أنه لديك الكثير من الأسئلة، ولكن جوابها لن تحصل عليها الآن، سيأتي اليوم الذي تصبح في مكاني هذا وتجد كل ما تتساءل

عنه، ويجب أن تعلم أن ما فعلته مخاطرة كبيرة، ولو لم يأتي الرانسي في الوقت المناسب لأنقض عليك الهجارس وكان مصيرك الهلاك.

قاطعته قائلا:

- من هم الهجارس والرانسي يا جدي.

- قلت لك أنه سيأتي اليوم الذي تعرف فيه كل شيء، أما الآن فقد حان وقت العودة، فلا يجب أن تتأخر أكثر من هذه المدة، وإلا اضطررت للمكوث هنا لسنتين حتى تتمكن من العودة، وصدقني لن يعجبك ذلك فنحن هنا معرضون للموت في أي لحظة.

وقف من مكانه وضرب الأرض بعكازه، فدخل علينا نفس الرجل الذي جاء بي إلى هنا وتبادلوا بعض الكلمات بلغة غريبة، استدار جدي نحوي فقال:

- لا تُعد فعل هذا يا بني، قد لا نكون نحن السباقين إليك، فإن حدث وسقطت في قبضتهم ستنقطع سلالة عائلتنا عن هذا المكان.

***

كان عادل يرى أمامه كل حدث يكتبه، أعاد الورقة والقلم إلى مكانهما وهو ينظر إليهم فوق الحصان السريع يقطعون الطريق إلى أن وصلوا المكان،

لوح الفارس بيده نحو الباب الضخم ودلف الشاب من الباب فأُقفل، لتقفل أولى قصة من قصص عادل وتبقى له قصتين اثنتين.

اختفى كل شيء وعادت الظلمة لتستولي على المكان، خرج عادل من البيت وظل يراقب العنكبوت وهو ينسج خيوطه على بابها، استدار متوجهاً إلى إحدى البيوت، وقف أمامها وهو يخمن أي قصة سيجد في الداخل، أهي قصة العجوز أم قصة الانتقام؟

أزاح خيوط العنكبوت ودخل، انتظر للحظات قبل أن يظهر أمامه رجل يجلس على الكرسي، وقد كُتِّفت يداه ورجلاه، بينما كانت هناك عجوز على بعد خطوات منه تقف أمام طاولة، لم يستطع الرجل أن يكتشف ما تفعله، فقد حجب ظهرها الرؤيا.

***

"أغمض عينيك لا أظن أنك تريد رؤية هذا."

كانت هده آخر عبارة سمعها علي، فقد أخرجت العجوز سكيناً من خلف ظهرها وهي تقف وراء علي الذي لا حول له ولا قوة، فزفّت السكين من

عنقه وجذبته بقوة ليسيل الدم من عنقه وينسكب في وعاء كبير تحت قدميه، اختفت قليلا ثم ظهرت وهي تحمل سكيناً أكبر، فظلت تضرب به عنق علي حتى انفصل رأسه عن جسده.

هبّ علي من النوم مذعوراً وهو يرتعد من الخوف ويضطرب من الفزع والرعب، ارتشف رشفات متتالية من كأس الماء بجانبه وهو يقرأ المعوذتين، نظر إلى الساعة وهي تشير إلى السابعة صباحاً، فتململ من فراشه ليبدأ يومه الجديد.

***

خرج عادل من البيت تاركاً وراءه العنكبوت يقفل الباب بخيوطه، وتوجه نحو قصته الأخيرة وهو يخطرف خطاه مسرعاً، فقفزت إلى ذهنه أحداث القصة، ظل يتساءل إن كان سينتقم حسن ويقتل مصطفى أم سيعفو عنه، أتاه صوت من داخله يقول:

- مصطفى كان جباراً وارتكب الكثير من الجرائم، ولكن ذلك منذ زمان بعيد، أما الآن فقد تاب وها هو يعترف بخطئه ويفعل كل ما يستطيع ليساعد أي محتاج،

ليأتي صوت آخر ويقول:

- الإنسان يمتلك عقلا ليفكر ويميز بين الصواب من الخطأ، لا يعقل أن يرتكب كل تلك الجرائم في حق الأبرياء ولا يحاسب، الآن جاء وقت المحاسبة فدع حسن ينتقم لعائلته الصغيرة التي لا ذنب لها، بل لكل الأبرياء الذين لقوا مصرعهم على يده.

نفض عادل غبار تلك الأصوات ودخل الغرفة، بقي ينظر إلى المنظر الذي ارتسم أمامه لرجل ملقى على الأرض وهو مصطفى ورجل آخر يقف فوق رأس المُلقى أرضاً، ويحمل في يده مسدسا وكان هو حسن، استمر عادل في النظر إلى المشهد والورقة والقلم في يده، كان في حيرة من أمره ولا يعلم أي الكلمات سيكتب، لم يتوقع يوماً أن يأتي به الزمان لموقف كهذا، كان يعتقد أنها مجرد كلمات تلك التي يكتب بين دفتي دفتره، ولكنها قصص تحققت وجاء ليعيشها ويرى أبطالها كما صورهم، ظل حائراً فأغمض عينيه لبرهة من الزمن وكأنه يشاور شخصا ما، ففتح عينيه وبدأ يكتب دون أن ينظر إلى الشاشة.

***

ضرب حسن مصطفى بقبضة المسدس وأسقطه أرضاً وهو يقول بعنف وصوته المبحوح يعلو بغضب:

- لن أسامحك يا أبله.

عاد ليجلس عل الكرسي وأردف:

- ارتكبت خطأً كبيراً تلك الليلة، لماذا تركتني حيا؟ كان يجب أن تنهي حياتي التي انتهت تلك الليلة، فروحي فارقتني تلك الليلة، لم أكن لأستطيع العيش دون زوجتي وصغيرتي فذهبت روحي برفقتهم وظل جسدي هنا، لو قتلتني لارتاح كلانا، ولكن أخطأت يا صديقي وها أنت الآن تجني ثمار أخطائك.

صوب حسن المسدس على مصطفى، كاد أن يطلق الرصاصة لتقطع الطرية وتستقر في رأسه ولكنه تراجع في آخر اللحظات وتوجه إليه وضربه مرة ثانية على رأسه حتى أفقده الوعي وقال:

- لن أكون مثلك، لن أحرم ابنة من أبيها، ولكن سأجعلك تتذكرني بشي.

دخل المطبخ وظل يبحث عن شيء ما، وبعد لحظات خرج منه وهو يحمل في يده مزبراً، رفع يد مصطفى على كرسي خشبي وأخذ المزبر فرفعه نحو الأعلى وهو يقول:

- هذه هي اليد التي أَمرت بذبح عائلتي.

هوى بقوة على يد مصطفى وقطعها من الكرسوع فغاب داخل المطبخ للحظات، وظهر وهو يحمل مجموعة من الأكياس البلاستيكية، أمسك اليد المقطوعة وحملها داخل الأكياس وتوجه نحو الباب تاركا ورائه مصطفى مطروحا على الأرض والدماء تتسرب من يده وقبل خروجه اتصل بالشرطة من رقم مصطفى واختفى.

***

رفع عادل أنظاره عن الورقة نحو الشاشة وإذا بالمشهد يظهر أمامه لجسم مصطفى الملقى، وبعد لحظات اختفى المشهد لتظهر بدله كلمة "النهاية"

" تدوم الذكريات الحلوة طويلا، و السيئة أطول "

فيض الذكريات

لازلت أتذكر ذلك اليوم، حين جئت إلى أمي وأنا مصمم على أن أسألها الكثير من الأسئلة عن أبي، لما ليس كبقية الآباء؟ ولماذا تزوجها إن كان يكرهها إلى ذاك الحد؟ كان عمري حينها 15 سنة، دخلت إلى المنزل وقبلت أمي وجلست على الكرسي في المطبخ وقالت لي:

- كيف كان يوم في المدرسة.

- بخير يا أمي حمداً لله.

- وفقك الله.

- أمي لدي بعض الأسئلة.

- سل يا بني.

***

كنت أعلم أنه سيأتي يوم ويطرح علي أنس هذا السؤال، فهو شخص يسعى وراء معرفة كل شيء بالتفاصيل، إلى أن أتى ذلك اليوم، جلس قبالتي في المطبخ وقال:

- أمي لماذا تزوجت أبي وأنت تعلمين أنه يكرهك لهذا الحد؟

أردت أن أجيبه وأسرد عليه قصة من وحي خيالي، ولكن لم أستطع قول شيء غير الحقيقة، حل الصمت على كلينا وأنا أتخيل ردة فعله عندما سأخبره، تملكني الخوف في داخلي، الخوف من أن أفقد أنس، ولكن لا أعلم لماذا وقعت كلمات أمام عيني سبق وقرأتها تقول:

"الحق مهما كان مُراً، أعذب من الباطل مهما كان حلوا،"

وأحسست أيضا بشيء في داخلي يقول:

- احكي له وإلا ظل هذا الذنب يطاردك ما حييت، فبدأت أسرد له تفاصيل قصتي.

كنت في العشرينيات من عمري، وكنت أتقاسم نفس الحلم مع صديقتي المقربة سارة، وهو أن نكمل دراستنا في فرنسا ونعمل هناك، بقينا ندرس بجد واجتهاد وكانت سارة صديقتي وأختي التي لم تلدها أمي، كنا نقضي معظم الوقت معاً ونرتدي نفس الثياب، كانت أمي رحمها الله تحبها كثيراً، كنت حينها في علاقة مع أحمد وكنت أعشقه حد الجنون، وهو أيضا كان يعاملني بكل حب واحترام، إلى أن جاء اليوم الذي طلب فيه يدي من والدي، سعدت كالفراشة التي تعيش حياة قصيرة، ولكنها تعيشها بكل سعادة، وبالطبع صديقتي سارة كانت أسعد وهي تراني أرتدي الفستان الأبيض، وترقص كأنها طفلة صغيرة، تزوجنا ولم أكن أعلم أن ذلك الزواج بداية لاغتصاب أحلامي المشتركة مع سارة، أعماني الحب وأنساني كل شيء، مرعام على زواجنا ولم أنجب، حاولت إقناع أحمد بالذهاب إلى الطبيب ولكنه قال بأنه يجب علينا أن نصبر قليلا، ومع الوقت بدأت ألاحظ تراجعاً في الاهتمام الذي كان يبادلني إياه أحمد، فحاولت أن أقنع نفسي بأن ضغوطات العمل هي السبب، مرت أعوام أخرى ولم يتغير شيء، وهنا بدأت الرحلة، قضينا أنا وأحمد سنوات ذهاباً وإياباً للأطباء، وفي كل مرة كنت أقرأ عن عيادة جديدة، أخبره أن نسبة النجاح أكبر هذه المرة ولكن بلا جدوى، كنت أعلم أني أنهكته وأني لم أفلح في تحقيق

حلمه، فقد كان يقول لي قبل زواجنا، "سننجب الكثير من الأطفال وسنكون سعداء للغاية" أنا أيضاً أريد أطفالا ولكن ليس الأمر بيدي، فقد فعلت كل ما بوسعي لم أترك عيادة إلا وزرت طبيبها، ولكن ما خفي كان أعظم، فبعد هده الرحلة الطويلة، أدركت متأخرة وأنا أقرأ سورة الكهف في ليلة من الليالي، أن الله يبتلينا بالصغائر لينجينا من الكبائر، فكل الكهوف مظلمة يا بني، إلا سورة الكهف فهي نور بين الجمعتين، وفي رحلة الخضر مع موسى عليه السلام، هذا الأخير يسأل الخضر على أن يعلمه مما علم، فيقبل الخضر ويشترط على سيدنا موسى ألا يسأله عن أمر حتى يحدث له منه ذكرا، ينطلقون حتى يلقوا غلاما فيقتله الخضر، فيعترض سيدنا موسى، ولم يعلم أن الغلام لو كبر لأرهق والديه طغيانا وكفرا.

رغم أني رضيت بقضاء الله وقدره، إلا أن المجتمع لا يرحم، فنحن في مجتمع يتزوج فيه الأشخاص وينجبون، لا لحبهم للأطفال، ولا لرغبتهم بجعل هدا العالم أفضل بتربية أبنائهم، بل لأن رجولة الرجل لن تكتمل، وأنوثة المرأة لن تكتمل، إلا إذا أصبحوا آباء أو أصبحن أمهات، نحن في مجتمع يعتبر الإنجاب هو الكمال، والتمنع عنه أو عدم الرغبة، وأحيانا عدم القدرة عليه هو نقصان لا يكمله شيء ولا يزيده شيء.

فقدت والداي إثر وقوع حادثة بالسيارة، كان فراقهم صعبا للغاية، سقطت دمعتي عندما سمعت الخبر، لتلحقها دموع غزيرة واختنقت تلك النبضات في قلبي حتى أنني شعرت أنه سوف يتوقف عن الخفقان، تراهم ينظرون إلينا من بعيد ويهبوننا الحلول والمساندة، إنهم الأهل الذين مهما عذبناهم بمتطلباتنا يلبونها بكل فرح، إن فقدانهم لأمر عظيم، شيء يجعل الروح والقلب يبكيان بحرقة، ليته فقط البكاء بل كل شيء يبعث الندامة والحسرة على كل لحظة حزن سببناها لهم، أشتاق إليهم كاشتياق العين لمقلتيها بعد أن اكتسحهما السواد، كان أحمد قد وعد أبي بأن يهتم بي قبل زواجنا، وحين مات تراجع اهتمامه بي إلى حد كبير، كأن ذلك الوعد مات مع أبي، أشعر بأنني مجرد خادمة له لا أقل ولا أكثر، انطفأت شمعة الحب بيننا، وبعد الله لم أجد إلا سارة لأتكئ عليها رغم المسافة الكبيرة التي تفصلنا، تواسيني بروحها المرحة، حتى أنني أنسى همومي وأنا أتكلم معها في الهاتف، ولكن أعود لأتذكر كل شيء ما إن تنتهي المكالمة، كنت سعيدة من أجلها فقد تمكنت من الاستقرار والعمل في فرنسا، وفي كل مرة أحكي لها عما ألمَّ بي، تتوسّل بشدة أن اترك كل شيء ورائي وألتحق بها، ولكن نفس الصوت الذي حتني على أن أقول الحقيقة لأنس، كان يقول:

- كل شيء سيتغير.

في يوم من الأيام سقطت في عقلي فكرة التبني، حاولت جاهدة إقناع أحمد لعل الأمر يغير شيء، أو لعله يعوض عقمي ويعود كل شيء كما كان، ولكن في كل مرة أناقشه في الموضوع يقول أن أؤجل الأمر لأنه مشغول، أجلس وحدي وأبكي بدموع تتساقط إلى الداخل، أبكي كل الوقت حتى أثناء النوم، كم هو مؤلم هذا الشعور الذي يستولي علي، كم هو مؤلم شعور الوحدة، كم هي قاسية قلوب الناس، أتساءل، ما بال الناس يعيدون ولا يوفون بشيء من وعدهم؟ صدق أبي حين قال:

- يا بنيتي الناس معادن، وعند الشدائد من كان معدنه من تراب يتلاشى وكأنه لا شيء، ومن كان معدنه من ذهب يزداد لمعانا

أنا من فعلتها لنفسي أنا التي لم تراهن على النهايات، فالبدايات للجميع.

- سنذهب غداً إلى الخيرية،

هكذا قالها بعد أن أتى من عمله، قالها بكل برود واختفى وراء باب الغرفة، ولكن لم أهتم، تلك السعادة التي اكتسحتني أنستني كل شيء، فرحت كرضيع وجد من يرضعه بعد أن تخلت عنه أمه.

دخلنا الخيرية، كنت حينها في سنتك الثالثة، وكنت أول من وقعت عيني عليه بين كل الصغار، وأدركت حينها أنك أنت تلك الحلقة المفقودة في حياتي، وبينما كان أحمد يتحدث مع أحد المسؤولين، جلست أتأملك من بعيد، عندئذ اشتعلت شمعة الحب التي انطفأت منذ زمن في قلبي، لم أؤمن يوماً بالحب من أول نظرة، وها أنا أقع في حبك من نظرة، عدت إلى المنزل بدونك كان الأمر يلزمه بعض الوقت لإكمال الإجراءات، ولكن سأعود لأخذك بعد أيام قليلة، لم يزر النوم جفوني ولم تفارق صورتك مخيلتي، اشتريت كل اللوازم الخاصة بك من ثياب وحفاظات، وبقيت أنتظر تلك اللحظة التي تكون فيها بحضني.

كم هي رائعة البدايات يا أنس، حضنتك بين ذراعي وأحسست أني ولدت من جديد، شعرت أن الزمن توقف وأنا أنظر لعينيك، جاءت مربيتك التي أطعمتك وسقتك، والتي أمام أنظارها خطيت أولى خطواتك، وعلى

مسامعها نطقت أولى كلماتك، قالت لي والدموع تسيل من عينيها على فراقك:

- دعيني أحضنه للمرة الأخيرة.

كم هو جميل اللقاء، وكم هو مؤلم فراق الأحبة، وما أصعب العيون حين تنظر مودعة، يحترق القلب حسرة وألم، ونشعر بالاحتراق قد وصل إلى حناجرنا، يمتنع الكلام عن الخروج، نختنق لا ندري ماذا نفعل؟ وإن أردنا الكلام لا تخرج سوى همسات غير مفهومة، قالت بكلمات حزينة تصارع حروفها للخروج،

- اعتني به جيدا، ولا تعتبريه يوماً أنه طفل متخلى عنه، اعتبريه من صلبك.

عانقتها مودعة وحملتك، توجهت إلى أحمد في السيارة وأنا في طريقي إلى الخروج أدركت حكمة الله وأنا أنظر إلى جموع الأطفال المتخلى عنهم، الأطفال الذين استقر بهم المقام بين أحضان المربيات، فلو أن كل نساء الأرض أنجبن، فمن لهؤلاء الأطفال الذين لا أمهات لهم، فالله أعدل من أن يسلب امرأة أمومتها، وأعدل من أن يترك هؤلاء الأطفال دون رعاية، لكن الناس هم من يظلون الطريق دائما، فما خلق الله نقصاً إلا

وخلق ما يكمله، لكنه يترك لنا أحيانا مهمة البحث، وها أنا وجدت طريقا يؤدي إليك بعد أن ظللتها، أدركت أننا ما خلقنا لنيأس، بل يجب أن نقف على شرفة الحياة، ونخوضها ونحن مطمئنين واثقين بالله، وعلى أمل وإن طال وقوفنا فالأمل أطول.

كنت مرهقا واستسلمت للنوم ونحن في طريقنا إلى المنزل، تبدو كالملاك وأنت نائم، وصلنا وأخذتك إلى سريرك الصغير بجانبي، لم أكل شيئا منذ الظهيرة، كانت نظرة واحدة إليك ترويني، وقبلة تشبعني، استسلمت بدوري للنوم بجانبك، وبين الفينة والأخرى أستيقظ لأطمئن عليك وأعود لأغمض عيني وتبقى كل حواسي متيقظة في خدمتك، أما أحمد فلم يتغير، لا زال كما هو، بل زاد من تجاهله لي، أحسست أنه لبى طلبي بتبنيك لكي أنشغل بك عنه، أصبح يدخل لوقت متأخر من الليل، لم يكن لك أباً ولم يكن لي زوجاً.

طوت السنة الأخرى إلى أن أصبحوا سنوات، كبرت وأصبحت في سن العاشرة، عشت كل السنوات التي مرت أنا وأنت فقط بكل سعادة وحب، كنت أطير فرحا في كل مرة تناديني "ماما" كنت أشتاق إليك حين تذهب

إلى المدرسة وأبقى وحدي، كنت مؤنسي الغالي، كنت لي كل شيء كما كنت لك كل شيء، كنت الأم التي تركتك، والأب الذي لم يهتم بك يوما.

في ليلة ممطرة كانت تتساقط حبات المطر وتزداد ضخامة شيئا فشيئا، كنت أنجز معك بعض الواجبات، وإذا بي أسمع طرقا عشوائياً على الباب، ذهبت مسرعة لأتفقد الأمر، فتحت الباب لأجد أحمد في حالة مزرية، ملابسه مبتلة وتفوح منه رائحة كريهة، يتمايل يمينا ويسارا، صرخت به وأنا أقول:

- ماذا فعلت بنفسك.

رد عليّ بصفعة أسقطتني أرضاً وقال:

- ابتعدي عن الطريق يا عقيمة.

وأكمل طريقه، لم أشعر بألم الصفعة أكثر مما آلمتني تلك الكلمة، العقيمة، أحسست بها تخرج من فمه بقوة سهم يقطع الريح شاقاً طريقه نحو هدفه، كنت قد نسيت تلك الكلمة، أو أني أوهمت نفسي بنسيانها، وجاء أحمد ليصفعني ويذكرني بشيء ليس بيدي حله، شعرت بيد صغيرة تعانقني، كنت أنت وكانت دموعك تتسلل إلى عيونك الصغيرة، أما أنا فقد فقدت

القدرة على البكاء، ساعدني حضنك على أن أتجاوز ما ألم بي تلك اللحظة، عانقتك بدوري وقلت لك:

-لا تقلق يا بني كل شيء سيتغير.

وكانت تلك مجرد البداية.

وككل ليلة كنت أمارس عادتي، أتأملك وأنت نائم قبل أن يتسلل النوم إلى جفوني، ولكن تلك الليلة لم ترى عيوني النوم، وذرفت دمعا شديدا، حاولت أن أقنع نفسي بأنه قال ذلك دون وعيه ولكني فشلت، في الصباح أحسست بمن يرسم قبلة على جبيني، استيقظت لأجده أحمد، نظرت إليه وقال:

-سامحيني وأقسم لك أن ذلك لن يتكرر.

تسلل بصيص من النور إلى قلبي ظنا مني أن كل شيء سيتغير ولكن حين يأتي الليل يعيد فعلته، ويقسم صباحا أن ذلك لن يتكرر، مجرد وعود واهية، ولا يفي بشيء من قسمه.

كنت مصدر قوتي وسبب تحملي، لم يكن لي شخص أذهب إليه ولم أحكي شيئا من ذلك لسارة، تراودني فكرة بيع المنزل وترك كل شيء ورائي والذهاب إليها، ولكن تتلاشى الفكرة بنفس السرعة التي تسقط فيها بعقلي، كنت مخطئة وأنا أتشبث بأمل أن كل شيء سيتغير، ولكن لا شيء تغير.

رن الهاتف في ساعة متأخرة من الليل، لم أهتم به وتركته، وبعد ثواني قليلة، بدأ يرن مرة أخرى.

-ألو

-مرحبا هل أنت عائشة زوجة أحمد؟

-نعم أنا هي ما الأمر.

-زوجك توفي بحادثة سير.

لا أعلم ماذا سأفعل، هل أبكي وأصرخ كجميع النساء الدين فقدوا أزواجهم إلى أن يجتمع عليّ كل أناس الحي؟ ولماذا سأبكي، هو لم يكن لي زوج، بل كان مجرد شخص يضربني كل ليلة، ويجعلني أتشبث بأمل زائف، ليأتي الليل ويغتصب ذلك الأمل، ولكن رغم ذلك، بكيت حين رأيت وجهه لآخر مرة قبل أن يحملوه إلى القبر، تملكتني الرعشة وأنا أنظر إلى وجهه وأتساءل كأني أحدثه، كيف ستلاقي ربك يا أحمد؟ أنا سامحتك على كل ما فعلته بي، وعلى كل الأذى الذي سببته لي، ولكن لم يكن قرآناً أو صدقةً آخر ما اختتمت به حياتك، بل كان الخمر آخر شراب لك.

منحتني ذاكرتي شعرا كنت قد قرأته يقول:

النفس تبكي على الدنيا وقد علمت

أن السعادة فيها ترك ما فيها

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها

إلا التي كان قبل الموت بانيها

فإن بناها بخير طاب مسكنه

وإن بناها بشر خاب بانيها...

(علي بن أبي طالب).

لم يكن موت أحمد حداً لمعاناتي، بل كان بداية لمعاناة أخرى، وهي نظرة المجتمع حول الأرملة، فكثير هم الناس الذين لديهم نظرة سلبية للمرأة الأرملة والمطلقة، وهؤلاء لم يقرأوا سيرة رسولهم محمد صلى الله عليه وسلم، فأغلب زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم مطلقات وأرامل، لا أعلم من أين جاءوا بهذا الكره والحقد للأرملة، كأنها ليست بشراً، بل

وأكثر من ذلك إن ألقينا نظرة حول بعض الثقافات الهندوسية القديمة، نرى أن المرأة تحترق مع زوجها عند موته.

***

هكذا اختتمت أمي قصتها والدمع يسيل من عينيها، أما أنا فكنت أبكي مرة وأحزن مرة وأكره ذلك الرجل مرة، لينتهي بي المطاف وأنا أقول:

- رحمه الله وغفر له.

لا يؤلمني أن أتربى في أحضان امرأة غريبة، ما يؤلمني هو أن تتخلى عني أمي، وأي أم هذه التي تتخلى عن ابنها، لا أعلم ما هي الظروف التي جعلتها تفعل ذلك، كل ما أعلم هو أنه لا يجب أن تتخلى عني، يولد البعض لافتعال الأذى، هل أمي كانت من هؤلاء؟ كنت طفلا في الخامسة عشرة من عمري حينها، لازلت أتذكر وأنا أغمض عيني وأعيد فتحها لعل الأمر يكون حلماً ولكنه حقيقة،

عدت لأتأمل أمي وهي تنظر إلى والدمع لا زال يتهاطل من عينيها، شعرت بخوفها من ردة فعلي، خافت أن تفقدني، ولكن هي من ربتني

وسهرت الليالي من أجلي، هي من كانت لي كل شيء رغم أنها لم تلدني، أقاوم دموعي وتتسلل قطرة منه، تأتي أمي وتأخذني في حضنها وتقول:

- يشهد الله أنني لم أعاملك يوما على أنك لست من صلبي.

يهطل الدمع الحبيس في عيني وأجيبها:

- لا أعلم الظروف التي جعلت أمي الحقيقية تتخلى عني، ولن أحمل لها في قلبي كرها، ولكن سعيد لأنك بجانبي، أحبك أمي.

مرت أحد عشر سنة على هذا الاعتراف الذي قالته لي أمي، ورغم ذلك لا زلت أتذكر كل كلمة خرجت من فمها ذلك اليوم، ربما كانت ستكون ردة فعلي غير تلك لو أن أمي اعترفت لي بأني لست ابنها وأنها تبنتني فقط، ولم تسرد لي قصتها، ولكنها حكت لي كل شيء منذ أن تبنتني، حكت كل القسوة التي مرت بها، حكت لي عن نظرة الناس لها وهي عقيمة، وعن العذاب الذي تحملته بسببي، لذلك لم أفكر في أن أزيد من عمق جرحها، حتى أني لم أنصدم حين سماعي كلمة "تبنيتك" حزنت قليلا لأجل ذلك، ولكن سرعان ما حل محل الحزن مشاعر أخرى، كالغضب حينما كان يضربها زوجها، لا أعلم أي نوع من الرجال هذا الذي يضرب زوجته، بل البعض يعتبر ذلك من سمات الرجولة، ومن صفات الرجل الحقيقي أن

يلجأ للضرب، وقد يكون الأمر موروثا، بحيث يكون الرجل قد نشأ في أسرة كان والده يمارس فيها نفس السلوك العنيف مع فرد من أفراد العائلة.

انغمست في قراءة كتاب من كتبي، إلى أني لم أشعر بالوقت حتى دقت ساعة الحائط بنسق بطيء ومألوف معلنة عن مرور ساعة أخرى، واستقرت عقاربها على الواحدة ليلا، تركت الكتاب جانباً وأمسكت الهاتف لإلقاء نظرة على آخر الرسائل، وإذا بي أجد رسالة من ريم تقول:

- في الحب يفترض بنا أن نرى الآخر أيضا لا أنفسنا فقط.

ابتسمت وكتبت:

- في الحب حين نرى الآخر نرى أنفسنا، تصبحين على خير.

كان هذا ختاماً لحديث لم نكمله في الحافلة أنا و ريم التي تعرفت عليها منذ حوالي ما يقارب السنة في الحافلة التي أستقيلها إلى العمل، كنا نقضي الطريق في الأحاديث يوميا، الأحاديث العامة ولا يوجد شيء خاص، بعدها تحولت علاقتنا إلى صداقة، بعدها ازداد الاهتمام مع الصداقة، ولكن عجزت على التسلل إلى قلبها في أول القصة، وسرعان ما استطعت أن

أرى في عينيها بوضوح وأقرأ في ابتسامتها أنها تقاسمني نفس الشعور، وتحاول جاهدة كلما غلبها ضعفها أن تأخذ دور السخرية أو الفلسفة، كانت تنتظر أن أعترف، وكنت أنتظر أن تفهمني، لا أعلم كيف حدث وأيقظت ريم فيّ كل ما هو نائم، وبعثت كل ما هو ميت في أعماقي، بل أصبحت مستعداً فقط للحب، أؤمن أن الإنسان في لحظة ما، يولد إنسانا جديداً غير الذي كان عليه، وأنا ولدت من رحم عينيها ولم يعد بإمكاني أن أخطو خطوة للوراء، لم أُرد أن أقول لها أُحبك هكذا، أردتها أن ترى بنفسها ذلك، أردت أن تراه في اهتمامي بها، في رسائلي لها، وفي نظراتي إليها، ولكن لم يفلح الأمر، أو ربما فلح وشعرت هي بحبي لها غير المكتمل، وتملكها الخجل أو الخوف ربما من أن تكمله بكلمة منها، وبقيت كمتفرجة على قصتها تلك، كنت يومها أقرأ كتاباً وصادفت اقتباسا يقول:

"لا أعلم لماذا يخجل الناس من الحب، من البوح به ومن الاعتراف به، كأنه جرم نخجل منه، وعلى حد علمي لم يكن الرسول يخجل من حبه للسيدة عائشة، فكان كل أصحابه يعلمون أنها حبيبته."

هناك معتقدات خاطئة تتكون عند العديد من الأشخاص، تجعل الاعتراف بالحب من الأمور الصعبة، قد يكون خوفاً وقد يكون ضعفا أو عدم الثقة،

وقد يكون لدى الشخص تجربة سابقة فاشلة في الحب، لدى يخاف من الوقوع في الحب مرة أخرى، حتى لا تتفتح جروح الحب السابق لديه، وأن يكون مصير الحب الجديد الفشل أيضا، لدى يفضل الاحتفاظ بمشاعره لنفسه، وقد تكون التقاليد لدى الشخص سبباً في تردده بالاعتراف بحبه، ولكن أنا لن أجعل أياً مما مضى أن يقف في وجه اعترافي لريم، حينها نفضت عن نفسي غبار الخجل وأخذت الهاتف وبدأت أكتب.

" مرحبا ريم، أريدك أن تعلمي أني انتظرت طويلا هذه اللحظة، وأريد أن أقول لك، أريدك في حياتي كما أنت في قلبي، فأنت لا تجدين البقاء فيهما بل احتلالهما."

أطفأت المصباح وارتميت على السرير، وقبل أن يزور النوم جفوني، يترك المجال للذكريات المتزاحمة لأن تتصور أمامي، ربما ذلك الحديث الذي جمعني بأمي في المطبخ منذ أحد عشر سنة، هو من أحيا هده الذكريات الأليمة التي كانت مختبئة في ركن منسي بعقلي، وها هي الآن ومنذ زمن ليس بالقريب تزورني كل ليلة، وكل ليلة تأتيني أقوى من الليلة الماضية، تأتيني بصور لامرأة تبكي وطفل صغير يعانقها ولا يبخل بدوره بمشاركتها البكاء، وأصوات غريبة تستنجد، أحاول الهرب إلى النوم، إلى

تلك المساحة الصامتة من اللاوعي، فيأبى النوم أن يحتضنني ويركلني بقدم قوية نحو القسوة، أختنق، أبكي، وهل يبكي الرجال؟ وهل أبكي وقد بلغت من العمر ربع قرن وسنة، في الليل تختنق صدورنا ونبكي كثيراً، وفي ضوء النهار نخفي الدموع خوفا من أن يراها أحد، أشفق على وسادة ما عادت تتحمل الدموع، وأنا صغير كنت أبكي فأرتمي في حضن أمي، كبرت الآن وأصبحت أبكي دون علمها، فجأة أشعر بيد دافئة تمسح ذاك النهر المنجرف من الدموع، هذه أمي كأنها جاءت لتقول:

- ومن قال إنك ستبكي دون علمي.

أمي هي كل شيء في حياتي، هي التعزية في الحزن، الرجاء في اليأس، والقوة في الضعف، أنام في حضنها فتنسحب كل الذكريات الأليمة، حقا لا يوجد في العالم وسادة أنعم من حضن أمي، ولا وردة أجمل من ثغرها، الأم هي عماد البيت، وسر الحياة، هي الأمان الذي نلقاه حين تقسو علينا الدنيا، الحضن الذي يضمنا حين تتعبنا الأيام، وهي من تحملنا في رحمها تسعة أشهر وتحملنا في قلبها طوال حياتها، ورغم أن أمي لم تحملني في رحمها، إلا أنها حملتني في قلبها من أول يوم وقعت في حضنها.

حل الصباح وألقت أشعة الشمس خيوطها لتتسلل بعضها نحو النافذة، وتطرد النوم الذي كنت أترجاه الليلة الماضية بأن يزور جفوني، فتحت عيني وأنا أحمد الله الذي أعطاني فرصة عيش يوم جديد، بحثت في ذاكرتي عن المواعيد التي تنتظرني في يوم العطلة، وتذكرت أن خالتي سارة ستأتي من فرنسا لمساعدة أمي ومشاركتها فرحة يوم زفافي، وأيضا لدي موعد مع ريم لنشتري بعض لوازم الزفاف.

كنت دائما أرى أنني في يوم من الأيام سألتقي بفتاة مميزة، وكما أنني حفظت قلبي من أجلها، سيحفظها الله من أجلي، إلى أن جاءت ريم، كانت مجرد محادثات عابرة، لتصبح ريم هي تلك الأميرة التي سكنت روحي وتربعت على عرش قلبي حتى تفارق روحي مثواها، وها نحن الآن على بعد أيام من أن يجمعنا سقف واحد، أبغض أولئك الذين يقولون إن الزواج مقبرة الحب، أما أنا فلا أريد أن أتزوج ريم لأضع نهاية للحب الذي يجمعنا، وإنما لأضع بداية جديدة له، فأنا لم أختر شكلاً وإنما اخترت قلبا.

مرت أيام زواجنا الأولى بحب وسعادة، رغم ما يقال عنها أنها أصعب أيام الحياة الزوجية، فهي تكشف العديد من الجوانب السطحية التي لم

تظهر قبل ذلك، ولكن مع وجود شخص حكيم نستمد منه النصائح كأمي، لم نجد أي صعوبات، أقمنا مع أمي في المنزل، لم أفكر في تركها والعيش مع زوجتي في بيت آخر، خصوصا وأن تلك التجاعيد وتلك الشعيرات البيضاء بدأت تجد طريقا إلى رأسها ووجهها، لم أجد أي اعتراض من ريم للإقامة مع أمي، بل رحبت بالفكرة وكانت تعتني بأمي وتعاملها كأنها أمها، على عكس بعض العلاقات الزوجية، التي تكون فيها الزوجة في صراع دائم مع الأم، لا ينتهي إلا بانفصال إحداهن عن الأخرى، أما الزواج، فلم يضع حداً لأحاديثنا تلك التي كانت تجمعنا من قبل في الحافلة، بل زادت حدتها، كنا ككل الأزواج، نتخالف الرأي ونتناقش نقاشاً حاداً، وسرعان ما نضع حداً لذلك النقاش إذا رأى شخص منا أنه يسلك طريقاً لا ينبئ بالخير، كنا نكمل بعضنا البعض، فأجد عندها ما ينقصني، وتجد عندي ما ينقصها.

لا أعلم لما أصبحت كثير النسيان في هاته الأيام الأخيرة، ضعف تفكيري كثيراً، ربما لضغط العمل الذي كان يستنزف طاقتي، أو ربما لمرض أمي المفاجئ، حل المرض ضيفاً ثقيلا على أمي، حتى أنهك جسدها، وعلى إثره أُدخلت المشفى بحالة حرجة، ولكم أن تتخيلوا أن يقال أن وضعها

الصحي غير مطمئن، كلمة عندما سمعتها وقفت عقارب الساعة برهة من الزمن، وتجمدت الدماء في عروقي، حطم السرطان قوى أمي، كانت شاحبة الوجه، ذابلة الملامح، غائرة العينين، مرض الأم وجع يقتص من عافية أبنائها، أقف على بعد خطوات منها وأترجاها في سري أن تقوم وأقول:

- قومي يا أمي وانفضي عنك هذا المرض، أزيلي عنك الألم يا أمي، قومي.

وقت الشدائد والضيق تبين لك الأيام معادن الناس، ومعدن الخالة سارة كان من ذهب، لم تتخلى عن أمي ولم تفارقها رغم الشيخوخة التي استولت عليها، إلا أنها اعتنت بصديقة شبابها كاعتناء أم بطفلها المريض وأكثر، ظلت ترافقها أينما حلت وارتحلت إلى آخر يوم في حياتها، ماتت أمي، وحينها ماتت الحياة تماماً، لم يعد للحياة صوت ولا ضجيج، تلاشى العالم في مساحات الصمت والغياب، بقدر ما كان موت أمي صارماً، بقدر ما كان حتمياً، لتكمل رحلة الشفاء وليسدل الفقد ستاره معلنا نهاية الأمل،

عُمِيَتْ، بُكِمَتْ، وَشُلَّتْ، ووضعت نقطة النهاية في آخر السطر، وانتهت حكايتها في الحياة، رغم أن رسالتها لم تنتهي.

موت الأم هو الفاجعة الكبرى التي قد تصيب الإنسان فتتركه مبتور القلب ولا يعرف معنى الحياة والطمأنينة، وبرحيلها يغلق باب من أبواب الجنة.

مرت أيام العزاء كالحلم، أنام لأستيقظ من هذا الحلم، وأستيقظ دون أن أستيقظ منه، اليوم الأول دون أمي كان حادا وصريحا وقاسيا كالحقيقة، ولما علمت تلك الذكريات عن موت أمي، لم تكتفي بأن تزورني في تلك الساعات التي تسبق النوم فقط، بل جمعت أغراضها وجاءت لتقضي معي كل لحظة من لحظات حياتي، وفي حضورها أصبحت أشعر بغياب الإرادة عن الحياة، وأصبح أدائي في العمل منخفض لدرجة كبيرة، أشعر أنني بلا ملامح، أشعر بهَمٍّ جديد لا قدرة لي على فهمه والتعايش معه، كانت أمي الحجاب الواقي من كل الألم، ماتت لتتركني أعاني مع أفكاري المشتتة، ولتترك حالتي تتدهور يوماً بعد يوم، الأمهات هن أكثر من يخشون الموت، لأنهن يدركن بأن حياتهم مرتبطة بمن خُلقوا منهن، يشعرن بالمسؤولية والالتزام الأبدي تجاه أبنائهم، وبأن هناك واجبات مفروضة

والتزامات دائمة، توجب عليهن العيش والتنفس في الحياة، تتغير حياة المرأة ما إن تلفظ من رحمها إنساناً إلى الحياة، تصبح حياتها أكثر أهمية وقيمة حين تتفرغ منها سلسلة من الحياة تمتد بامتداد أفراد عائلتها، فتشعر بعبء ومسؤولية جلبهم إلى هذا العالم، فيكبر الواجب في داخلها.

أعود لكي أكتب كلمات عن زوجتي، عن ريم شريكة حياتي ورفيقة دربي، طالما كانت معي في كل أوقات الحزن قبل الفرح، ريم هي تلك الزوجة الرقيقة والمخلصة، وهي زينة البيت وملكة القلب، هي من وجدت لأتكئ عليها حين تركلني الحياة، ريم كان فيها شيء من أمنا خديجة رضي الله عنها، فحين نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي، وأصابه الخوف والبرد، كان عنده قبيلة كبيرة وأصدقاء كثر، ولكنه ذهب إلى زوجته، واحتمى من خوفه بخديجة، وتدفأ من برده بحضنها، كأنما يقول لها، أنت قبيلتي، وريم كانت قبيلتي، كنت إذا حزنت أذهب إليها بحزني، وإذا تعبت أذهب إليها بتعبي، كنت طفلاً كبيراً أحتاج إلى حضن حنون، ضمتني ريم في حضنها، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

{الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة، وكانت ريم صالحة.}

كلما أعطاني الله فرصة عيش يوم جديد، كلما ازداد يقيني أن أمي كانت حجابا لي من الكثير من الأشياء، وموتها كان كيوم موت سيدنا سليمان، لتتجبر الشياطين في الأرض، وكذلك هذا الفصام، ما إن علم بموت أمي، حتى أتاني راكضاً، وبدأ ينتزع مني أشيائي شيئاً فشيئاً، أشعر أن الأشياء على وشك أن تقع، أنظر إلى رف الزجاجات وأرى واحدة أو إثنين منهم على وشك السقوط، ثم أنظر مرة أخرى لأرى أنها على ما يرام، كنت أعتقد أني أسمع رنين الهاتف في جميع الأماكن في العمل، وبينما أجلس في مكتبي وأنا غارق في ملفات عملي، أسمع أصوات تقول:

- غبي، هم يكرهونك، أنت فاشل.

إتنان أو ثلاثة من أشخاص يتحدثون في نفس الوقت، ألتفت يمينا ويساراً باحثاً عن مصدر تلك الأصوات، ولا أجد شيء.

جلس على الكرسي قبالتي بهدوء، ولم يبعد عينيه الكبيرتين عني وكأنه يكاد يلتهمني بهم، افترست ملامحه جيداً وحاولت البحث عنه بين الوجوه في ذاكرتي، لأجد أنه نفس الشخص الذي أمرني في منتصف الليلة الماضية بأن أقتل ريم، أخذت أبحث بنظري فوق المكتب، لتستقر عيناي على مزهرية صغيرة، أخذتها وقذفتها حوله بكل ما أوتيت من قوة، ليتبخر

بسرعة وترتطم المزهرية بالحائط، أصبح رفاقي في العمل يتهربون مني، حتى أني سمعت بعضهم يصفني بالمجنون، وغير ريم لم أجد شخصاً يعاملني كأني إنسان عادي، وأن كل ما بي هو مرض عقلي مزمن، قد أستطيع تخطيه بقربهم واستيعابهم، لا بابتعادهم عني ورميهم إياي بتلك العبارات القاسية مما يضاعف من معاناتي، فالإنسان عدو ما يجهل وهناك الكثير من المفاهيم الخاطئة عنا نحن الفصاميين، فمن الناس من يعتبر الفصامي عنيفاً وعدوانياً، ولكن نحن من يتعرض للعنف المعنوي، وكل شخص يجب أن يساهم في مقاومة هذه المفاهيم الخاطئة تجاهنا بزيادة الوعي، والمعرفة بطبيعة مرض الفصام وحقيقته، والحذر من استعمال عبارات منقصة أو مؤذية للمريض، والتعامل معه باحترام وإدماجه اجتماعياً.

رغم أني أتعبتها إلا أنها لا زالت بجانبي، كانت تسهر لسهري وتحاول طرد تلك الهلاوس حين تستولي علي، كانت تراقبني من بعيد وأنا أتحدث مع تلك الأصوات التي لا يسمعها سواي، كانت تلك الأصوات تستفزني إلى أن أصبح عنيفا، فتأتي ريم بعد أن تمسح قطرات الدمع من على عينيها، وتأخذني في حضنها وتطرد تلك الهلاوس لبرهة من الزمن، ولم تكن تخشى على نفسها، في أول أيام زواجنا كنت أظن أننا سنهرم معاً

كتلك الروايات التي سبق وقرأتها، ولكن كان للفراق رأي آخر، وكان الفراق صاحب الرأي القوي، فتلك الليلة كان لابد من أن يرحل شخص منا، ويضع نقطة النهاية في آخر السطر، وتنتهي حكايته في الحياة كما انتهت حكاية أمي من قبل، تلك الليلة كان شخص منا يخاطب الآخر ويقول:

- لماذا تدير وجهك عني؟ هل قررت الرحيل؟ ودمعتي هاته التي تسيل، لمن تتركها؟

وشخص منا يجيب الآخر ويقول:

- هكذا هي الأيام، لا بد من الوداع، ومهما أحببت فإنك مفارق، ومهما عشت فإنك ميت.

لم أكن نائما على الإطلاق تلك الليلة، شعرت بالشلل، شعرت بأن شخصاً ما أو شيء ما، قد حل محل جسدي وعقلي، فلم أكن أنا ذلك الشخص، بل كان ذلك الذي زارني آخر مرة في المكتب، جاء هذه المرة أقوى من قبل وقال لي:

- أقتل ريم.

يترك لي المجال لأجيبه فأقول:

- وهل أقتل قلبي.

- هي لا تحبك.

- بل تحبني أكثر مما أحبها.

- أثبت ذلك.

- يجب أن تأخذ قلبي لترى ذلك.

- أقتلها وإلا فعلت.

- أقتلني أولا، وإن استطعت أقتلها.

أختنق وأبارز هاته الأفكار، تكاد تهزمني وتقتل ريم، فأعود لأقاوم، أهرب مبتعداً عن ريم وقاطعا الخطى التي تفصلني على الباب، وأدخل أول باب أجده أمامي، لأجد نفسي في المطبخ، فأتصارع مع تلك الهلاوس، أخنقها كما كانت تخنقني، فأكاد أقتلها، فأسمع صوتاً في داخلي يقول "قاوم يا أنس تكاد تقتلها وتفوز" فأفشل وتنفلت مني ملتقطة لِأنفاس تعيدها للحياة، وتعود أقوى مما كانت عليه، يكاد رأسي ينفجر من الصداع والألم، ماذا أفعل؟ فتجيبني الهلاوس، وتأتي شديدة كالهم، لست أنا من أمسك السكين

بيديه، فيمسكه أصبع ويفلته آخر، كنت أنا تلك الأصابع التي تفلته، ولم أكن أنا تلك التي تمسكه، أصارع، لا زلت لم أستسلم، ولكن سرعان ما ضعفت وخارت قواي، ليجري السكين على شرايين يدي، فتنفتح دائرة الدم المنغلقة على نفسها في جسمي، ليتسرب من أوعيته مخلفاً إياها غارقة، وتخلف جسمي بدوره ملقياً على المطبخ وقد ملأت الدماء أرضيته، لينتهي كل شيء، انتهت كل تلك الهلاوس، انتهت تلك الحرب الحامية، أنادي بأعلى صوتي على ريم لأودعها، ولكن صوتي لا يكاد يتجاوز باب المطبخ، تمنيت لو أني عدت إلى عافيتي، فقط لأكتب رسالة إلى ريم، رسالة اعتذار وشكر على كل لحظة قضيتها معها في الحياة، لأخبرها أني أحبها عدد ما سُطرت في الأوراق كلمة أحبك رغم أنها تعلم ذلك، كانت أهلي وثروتي، كانت قبيلتي وموطني، كم هو مؤلم هذا الوداع، أكرهه، عقارب الحياة تمر ولم يبقى لي إلا دقائق وربما ثواني، تمنيت أن أعتلي منبراً وأخاطب العالم وأقول لهم أن يرفقوا ببعضهم البعض، وأن يرأفوا بنا نحن الفصاميين، بل وكل المرضى النفسانيين وغيرهم، نحن لسنا مجانيين نحن أناس مثلكم، أقول لهم رفقا ببعضكم البعض، ولتعلموا أنه دائما هناك أمل، دائماً هناك نقطة ضوء في دواخل كل شخص ولا يعلم عنها شيء، أيقظوها في بعضكم البعض، أن أقول لهم تقاسموا الأشياء بينكم كيفما

كانت، تقاسموا الإنسانية فهناك من يحمل منها أطناناً بينما هناك من لا يملك منها ذرة، تقاسموا الأشياء الجميلة فهناك من القسوة ما سيهلكنا.

توقف كل شيء، انتهت حكايتي، وغادرت قافلتي، فليست الحياة إلا حلم، يوقظنا منه الموت.

"العيون نافذة القلب"

عيون الحافلة

إنه صباح جديد، أتوق لأن أعيش كل لحظة فيه وأتقبل كل الفشل والألم على أنهما جزء من الحياة.

أصعد الحافلة وأرفع أسوار الوحدة من حولي، أثبت السماعات في أذني وأطلق الموسيقى الهادئة تلك التي لا ترافقها أي كلمات، فأرفع إيقاعها للحد الذي لا يجعل صوتاً يعلو على صوتها، أفتح نافذة وسط السور الذي رفعت لأطل منها، ثم تبدأ رحلتي.

أعلم لغة العيون جيداً، وقد أخبرك بنظرة واحدة مقدار الألم الذي تحمله العيون التي يقع عليها نظري، ذلك الألم الذي يقطن في دواخل البعض، الذي طغى على أعماقهم ليخرج ويرتسم على وجوههم.

هذه الحافلة علمتني الكثير من الأشياء، وأنا مدين لأي شخص التقت عيوننا معاً، لتخبرني أنه مهما كان لك من هَمّ، فقط ابتسم، علمني ركابها أن مشاكلي لي وحدي، أما حينما أتعامل مع العامة، فيجب أن أرسم بسمة لعلها تزرع الأمل في قلب شخص ما، وعلمتني أيضاً أن الحياة قاسية، وأن الناس في شقاء، يجب أن أربت على أكتافهم ولو بكلمة، وأخبرهم أنه دائماً هناك أمل، ومهما طال الليل فسيأتي الفجر معلناً بداية يوم جديد وأنه لم يفت الأوان بعد لأن نبدأ، لكن علينا أن نحسن اختيار البدايات هذه المرة.

كنت جالساً كعادتي في الحافلة، حتى أطل من بابها شيخ في منتصف السبعينات ربما، سبقه عكازه إلى الحافلة، كان اللون البرونزي السمة البارزة التي طغت على وجهه وجسده، فهو لم يحصل عليه من حمامات الاستجمام الصيفية، أو من رحلات الشاطئ الترفيهية، إنما أهدته إياه الشمس لقاء عمله الكادح تحت أشعتها، فقد أفنى حياته وهو يعمل بجد كي يؤمن لقمة عيش شريفة يقتات عليها أطفاله، كان من هؤلاء الذين طغى الحزن على دواخلهم ليرتسم على وجهه، أما عيناه فكانت من تلك التي

تحكي قصصا من الخذلان، ومن قال أنه ليس للعيون لغة، فكما أنه للصمت لغة فللعيون لغة أيضا.

كان المقعد بجانب العم قد أصبح شاغراً، فقررت أن أخرج من عزلتي وأجلس بجانبه لأعرف سبب ذلك الحزن، كان ساكناً يراقب ما تريه إياه نافذة الحافلة، وغير مكترث بما يدور حوله، حتى أني ألقيت عليه السلام فلم يرد، كان شارداً، كأنه ذهب في رحلة إلى عالم آخر، وضعت يدي على ذراعه إشارة لتنبيهه بوجودي جواره، ثم قلت:

- مرحبا، ما اسمك يا عم.

أجابني بعد لحظات من الصمت وهو يفترس ملامحي، ويحاول أن يرسم بسمة على وجهه تخفي حزنه، ولكن لم يفلح، فعيناه كانتا تظهران لي كل شيء، وقال:

- اسمي محمد.

- تشرفت بمعرفتك عم محمد، أنا اسمي سعيد.

لم يبعد عينيه عن وجهي وظل يفترس ملامحي وقد بدا الحزن يحل محل تلك البسمة ويرتسم على وجهه أكثر فأكثر، سألته قائلا:

- ما بك يا عم.

فقال قاطعاً لصمته:

- تذكرني بأحد أبنائي.

- وأين هو الآن؟

استدار نحو الزجاج يراقب ما ورائه فأردف قائلا:

- بل قل أين هم.

كنت أعلم أن قراءتي لعيونه لم تخطأ، فقلت:

- وأين هم يا عم؟

فبدأ يتكلم دون انقطاع وهو يُثْبِت مقلتاه على وجهي.

كان لي ثلاث أولاد، ربيتهم وهم صغار كنت سعيداً وأنا أراهم يكبرون أمام عيني يوماً بعد يوم، فكنت أتي لهم بكل ما يطلبون، فلا أدع شيئا ينقصهم، حتى جاء اليوم المشؤوم الذي ماتت فيه زوجتي، وهنا بدأت الحياة تفقد بريقها شيئا فشيئا، كان أكبر أبنائي حينها قد تزوج والصغير كان يبلغ من العمر خمسة وعشرين سنة، وعلى بعد أيام من زواجه هو أيضا، وحين تزوج لم تمر إلا أشهر قليلة على زواجه حتى بدأوا يتلاعبون بي كالكرة في الملعب، كان أحدهم يبحث عن عذر ويرسلني إلى الآخر،

ولا أكاد أكمل أسبوع حتى يجد الآخر بدوره عذراً لكي يتخلص مني، مرت أيام على هذا الحال وكنت قد منعت نفسي من التعليق عن أي شيء خوفاً من أن أكون سبباً في مشكل ما، وفي المرات القليلة التي أُعطي فيها رأي لم يكن أحد منهم يهتم به ولم تكن له قيمة، تحدثت مرة على انفراد مع أحد أبنائي عن تلك الملابس التي ترتديها زوجته فرد بكل برود قائلا:

- يا أبي أرجوك لا تتدخل في حياة زوجتي الخاصة، فلزمت الصمت والألم يعتصر في قلبي، ومرت الأيام وبدأت زوجة ابني بالتذمر مني واتهامي بالإهمال وأني رجل متطفل، لم يؤلمني ذلك أكثر من أن ابني كان يصدقها في هذا الكلام الباطل، كنت صابراً محتسباً حتى حين وصل الحال بابني أن يرفع صوته علي ويلومني بشدة.

ازداد حب ابني لزوجته بعد أن وضعت مولودها الأول، واستغلت حبه لها وقالت له:

-اخترني أنا أم أبوك.

ولم يكن الاختيار صعباً عليه ليختار زوجته، لم تكن تلك تربيتي لهم ولم يجدي الأمر نفعاً، حين أجد الفرصة وأجلس مع أحدهم وأذكرهم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال:

{بابان مؤجلان عقوبتهما في الدنيا، البغي، والعقوق.}

ويقول أيضاً:

{ثلاثة لا ينظر الله عز وجل إليهم يوم القيامة، العاق لوالديه، والمرأة المترجلة، والديوث.}

{وثلاثة لا يدخلون الجنة، العاق لوالديه، والمدمن على الخمر، والمنّان بما أعطى.}

لم ينفع كل هذا، حتى أني لم أكن لأكمل حديثي فينهض مبتعداً عني، فلم تكن تلك تربيتي لهم، بل كان الحب هو الذي أعمى أعينهم وجعلهم كآلات تتحكم فيهم زوجاتهم، ولكن سيأتي يوم ويندمون على كل ما فعلوه بي، لا أتمنى لهم ذلك ولكن الله يمهل ولا يهمل.

كان يوماً فاتنا ورائعا، إلا أن تلك الروعة كانت تخفي شيء في أعماقها، كنت قد صليت الفجر وجلست على السجادة أقرأ بعض السطور من كتاب الله، حتى جاء ابني وقبلني على رأسي فانتابني نفس شعور ذلك الطفل الذي جاءه أبوه بلعبة طالما حلم بها، فمنذ زمن لم يقبل أحدهم رأسي، وقال لي:

- أبي سنذهب أنا وأنت اليوم في نزهة.

- إن شاء الله يا بني.

انسحب ما تبقى من ظلام الليل فذهبنا أنا وابني في نزهة، عاملني باهتمام وحب غير معهود، جلسنا في مقهى واسعة بها طاولات وكراسي زرقاء ناصعة في كل مكان، كانت تطل على البحر مما زاد من جمالها، تحدثنا مطولاً وعدت به إلى تلك الأيام التي كانت لا تزال أمه على قيد الحياة، فجأة قاطعني قائلا:

- أبي سأذهب إلى الحمام.

انتظرت دقائق واجتمعت الدقائق لتكون ساعة واجتمعت الساعات لتصبح أربع ساعات من الانتظار، جاءني شاب ربما لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، يحمل في يده حقيبة وورقة، ترك الحقيبة أمام أقدامي وسلمني الورقة وذهب، لا أعلم ما كان قد كتب في الورقة فتحت الحقيبة، إذا بي أجد بداخلها ملابسي، حينها عرفت سبب ذلك الاهتمام والحب المفاجئ، أخذت الحقيبة وأطلقت العنان لقدماي، أمشي وأنا لا أعلم شيء عن وجهتي، ومع كل خطوة أخطوها أتذكر أبنائي وهم صغار، أتذكر كبيرهم يوم مرض فسهرت طوال الليل أنا وأمه فوق رأسه، أتذكر أوسطهم كم كان يبكي أول يوم له في المدرسة، وأخذته في حضني حتى يهدأ، وأتذكر

صغيرهم حين يسمع طرقي على الباب ويأتي جارياً، فأعطيه حلوى ويرسم قبلة على خدي، كانوا ثلاثة أطفال واعتنيت بهم، أما الآن فأنا رجل واحد ولم يستطع ثلاثة شباب الاعتناء بي.

كنت ما أزال أحمل الورقة في يدي، أوقفني رجل من الأخيار وسألني عن وجهتي، وحكيت له قصتي باختصار، أمسك الورقة مني وقرأ المكتوب فيها:

(المرجو ممن وجد هذا الشخص أن يسلمه لدار العجزة والمسنين.)

لم أستغرب لفعلة ابني تلك، أما الرجل فقد بكى وقال لي أن أذهب للعيش معه هو وأصدقائه فرفضت، وأخذني لدار العجزة، لتبدأ حياتي الجديدة هناك، كنت أقول في نفسي، هل يعقل أن يحدث لي كل هذا؟ أهذا جزاء الإحسان؟ أهكذا أوصانا الله بالتعامل مع الوالدين حين قال في قرآنه الكريم:

"وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أُفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما،"

[الإسراء: 23-24]

كنت شارد الذهن طوال الوقت هناك، أجول ببصري على جموع المسنين، البعض منهم متواجد هناك لأن الظروف لم تسمح له بالزواج وليس لديه من يرعاه، والبعض الآخر مصاب بشلل دماغي حاد، والبعض متواجد لأن أولادهم أهملوهم وتناسوا أصول بر الوالدين، فتركوهم في دار المسنين حتى يتلقوا الرعاية والاهتمام، وأغلبية الأهالي يصنفون من أصحاب الضمائر الميتة، باعوا ضمائرهم بثمن بخسٍ جداً، ليشتروا ملاذات الدنيا، فهم لا يستطيعون أن يُتعبوا أنفسهم وصحتهم في سبيل رعاية أبيهم المسن أو أمهم العجوز، الناس تقبل على الدنيا وتنسى الأخرة.

العزلة الاجتماعية التي نعيشها هناك هي الموت البطيء الذي يحطم أرواحنا من الداخل قبل أن يقضي على حواسنا، لم أكن لأتحمل تلك العزلة هناك فقد كنت يوما بعد يوم أموت ببطء، في صباح يوم مشمس خرجت وقد عزمت على أن أتدبَّر أموري وألا أعود لهناك، بِتُ ليلتها بين الزقاق أفترش الأرض وأتبادل أطراف الحديث مع الظلام، وأنظر للأعلى نحو النجمات البهية وأقول خذنني لكنّ الأن، فقلوب الناس متحجرة،

استيقظت لأجد نفسي متشرداً، أزلت ما علق بثيابي من غبار، وبدأت أمشي في شوارع المدينة ولا أعلم شيئا عن وجهتي، تمنيت لو أن النجوم لبت طلبي ليلة البارحة وأخذتني إليها، لا أعلم هل سيصدقني شخص إذا قلت له أنه لدي ثلاثة أولاد وحالتهم ميسورة، وأنا أجول الشوارع دون مأوى يأويني، أمشي تائها والذكريات الجميلة بالأمس والمؤلمة اليوم تتطاير في ذهني، فجأة أسمع منبه سيارة تكاد تصدمني ويطل صاحبها من النافذة على يساره ويرميني بألفاظ مشينة، وكأن الله أراد أن يواسيني وجعلني أتذكر آية قرآنية تقول:

"ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين"

[الحجر-97]

جمعت هذه الآية ذلك الحطام الذي خلفته تلك الألفاظ التي رماني بها ذلك الشخص، فلم أعر الأمر أي اهتمام واستمريت بالمشي، بعد بضعة دقائق أحسست بيد تحط على كتفي، ألتفت لأجد صاحبها هو صديقي يعقوب،

صديق الطفولة، أخذني إلى مكتبته وجلسنا وتحدثنا، سردت له قصتي من يوم موت زوجتي حتى لحظتنا الراهنة هاته، لم يتخلى عني كأبنائي، فقد وفَّر لي مسكناً أعيش فيه بعد أن رفضت أن أعيش معه هو وعائلته، ووفَّر لي عملاً في مكتبته، أقوم بتنظيم الكتب ومسحها من الغبار العالق بها، منذ أربعة سنوات وأنا أعيش على هذا الحال، استطعت أن أتعلم القراءة ووجدت في الكتب ما لم أجده في أي شخص، فهي زاد فكري ومعرفي يحتاجه كل إنسان مهما كان تخصصه في الحياة.

***

كل الكلمات خانتني، لا أعلم ما سأقول للعم محمد، اختبأت الجمل في مخدعها ولم أجد غير أن أعانقه عناقاً حاراً وصادقاً، وأقول له:

- سيعوضك الله أضعاف صبرك يا عم لا تقلق.

كان قد وصل الى محطة نزوله، ابتسم في وجهي وشكرني وذهب، لا أعلم لما شكرني ولكن كنت سعيداً حينما رأيته من وراء زجاج الحافلة يخطو خطاه وقد رُسِمت على وجهه الطيب بسمة، وملامحه كانت عكس تلك التي صعد بها، ومشاعره لم تكن شبيهة لتلك التي جاء بها، ربما كان يحتاج عناقاً ليشعر ويعلم أن هناك من يهتم به في هذا العالم الكئيب،

فأحيانا كلمة واحدة قد تغير مسار شخص ما للأفضل، وخصوصا إن كانت كلمات نابعة من القلب، أغلبنا يستهين بمدى عمق الكلمة الطيبة وما تحمله وتعنيه للطرف الآخر أيا كان، فمفتاح الجنة في كلمة والرجل أيضاً كلمة وشرفه في كلمة.

وصلت بدوري إلى الجامعة، وكنت سعيدا لأني كنت سبب دلك الابتهاج الذي أصبح عليه العم محمد، وكان أيضا للحزن مكان كلما تذكرت أنه قد تخلى عنه أبنائه، أي أبناء هؤلاء الذين يتخلون عن أباءهم وأمهاتهم؟ يتخلون عن شخص انحنى ظهره لتستقيم حياتهم، ويتخلون عن الجنة، كنا نرى أن الآباء والأمهات والأجداد شخصيات تحظى بالتقدير والتوقير والاحترام من طرف كل العائلة، ولكن مع مرور الأيام تغير الزمان وظهرت فئة من الأبناء الذين يتشدَّقون بعبارات التقدم والعنصرية، وأغلبهم من ميسوري الحال، بل هناك من يتبرأ منهم مخافة أن يعرف أصدقائهم أن لهم أباء وأمهات في أرذل العمر.

في طريق العودة من الجامعة إلى المنزل، قررت أن أغوص في كتابي وألتهم حروفه حرفاً تلو الآخر، وألا أقرأ تلك العيون الحزينة فكلما تعمقت

فيها اكتشفت قصصاً تدخل شيئا من حزن أصحابها إلى قلبي، وبينما أركز مقلتاي على كتابي كان هناك شيء ما يناديني، شيء ما كان يجذبني كأنه مغناطيس، ترددت في رفع عيناي عن كتابي، فقد خشيت أن ألتقي بعيون تحكي ألما آخر، فلم تعد لي مساحة لكي أتحمل أكثر، ولكن مفعول الشيء كان قوياً واستسلمت لقوته، فرفعت عيني والتقت بعينيها، حينها التقت الأحاسيس فوراً بدون مقدمات، وتكورت المشاعر في صدري حالا، ولم أدري ما هو ذلك الإحساس الذي سكنني، كانت عيناها تشعان بريقا ساحرا غزا عيناي غزواً وتعدَّاهما، واستمرت بنظراتها الحانية والفاتنة تلك.

لم تفارقني نظراتها تلك الليلة حاولت إقناع نفسي أن ذلك مجرد إحساس عابر، ولكن العابر عابر وقد لا يترك أثرا، خشيت أن يكون قد أصابني ذلك الشيء المسمى بالحب، فحاولت أن أطرد الأفكار وألجأ إلى النوم، ولكن لا زالت نظراتها تستولي عليّ.

في الصباح كنت أجلس في مكاني الدائم بالحافلة، أتفقد الوجوه حولي، كنت قد أقلعت عن هذه العادة التي لا تزيدني شيئا غير الحزن كلما قرأت

عينا، ولكن أردت أن أملأ كل فراغ يذكرني بطيف تلك التي رأيتها البارحة، ذلك الطيف الذي استولى علي، فأعود إلى الوجوه حولي، فبعضها كنت قد اعتدت على رؤيتها وبعضها كان مجهولاً، كان محياهم قد ملأه الاستياء، والقلة القليلة فقط من تحدَّثْ الحياة ووقفت في وجه كل الصعاب واستمرت أساريرها في انبساط، ركزت مقلاتاي على عيونهم وإذا بي أقرأ في بعضها العياء والبعض الآخر ملأها الأسى وبعضها ملأه الانكسار والاخفاق، وإحدى العيون كانت لشاب في الثلاثينيات من عمره، كان يجلس ساهما شارد الذهن وعلى محياه إمارة الهم، غطست في بحر عينيه لأجد أنه من أولئك الذين أرهقتهم البطالة، تلك الغيمة التي تحجب نور الأمل في قلوب الشباب أمثاله، هذا المرض اللعين الذي اجتاح أغلب البلدان العربية، ليخرب الأحلام والرغبة الملحة في توفير لقمة العيش، ربما هو أيضا قد طرح عليه ذلك السؤال الروتيني الذي سمعه وسمعناه مرات ومرات عدة عندما كنا صغارا:

- ماذا تريد أن تصبح حين تكبر؟

فيبتسم ابتسامة طفولية بريئة، ويطلق العنان لمخيلته ثم يجيب على حسب حلمه الفتي، مهندس، لاعب كرة، أستاذ، طبيب، ها قد كبر وصار يحتاج

طبيباً ليسكن وجعه ويرمم ما تبقى من طيف حلمه، أو تلك الأحلام، مرت أعوام ولا زال ذلك الطفل بداخله وداخلنا يبكي على حلم لم يتحقق، هو أيضا علموه في المدرسة أن يموت ويحيا الوطن، وها قد عاش الوطن وصار هو وصرنا نحن من الأموات الأحياء، علموه أن من جد وجد ومن زرع حصد، فاجتهد وجاهد وها هو الآن قد مرت عليه السنين على أمل أن يحصد ما زرع من علم طلبه في مسيرته، ليكتشف بعد فوات الأوان أنه قد زرع أرضاً قاحلة، أما الآن فلم يتبقى له إلا أن يغامر بنفسه وسط أمواج البحر، ويشق طريق الموت لكي يحيا بسلام، وأين السلام؟

أعود لأنغمس في تلك العيون التي ملأها العياء لتخبرني عن صاحبها وتقول بأن الحزن ليس على اليوم، فاليوم سيمر وسيستطيع أن يوفر لقمة عيش لأبنائه، وإنما الحزن على الغد فهو يتساءل ويقول:

-هل أستطع أن أوفر قوت يومي غداً؟

أنساه الغد كل شيء، فلم يجد من يحدثه عن الأمل ويقول له أنه ما من ليل يدوم باليأس إلا وباغته صباح يهزمه بالأمل، ولم يجد من يحدثه بحديث الرسول (ص) حينما قال:

{من أصبح منكم أمناً في سربه، معافاً في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها.}

لم يجد من يدخل الطمأنينة في قلبه بهذا الحديث.

نزلت من الحافلة وقد توقفت أمام باب الجامعة، بقيت أنظر إليها مودعاً إياها بعيني، يقولون إنه لكل بداية نهاية، ونهاية حكايتي في الحافلة ستكون هنا، فهذه آخر مرة سأركب فيها، فلم أكن لأرمي بنفسي إلى التهلكة، فذلك الحزن الذي كنت أقرأه في العيون كان في كل مرة يجعل ذرة منه تستقر بداخلي فقررت أن أنقذ الموقف قبل أن يزداد الحال سوء، فعزمت على أن أقطع الطريق الفاصل بين الجامعة والمنزل مشيا على قدماي، ففي الأصل أنا محب للوحدة وسأجعلها رفيقتي في هذا الطريق.

دخلت الجامعة ولم أصدق ما رأته عيناي، كانت تلك التي صادفت في الحافلة صاحبة النظرات الفاتنة والحانية التي استولى علي طيفها، ولم تفارق صورتها مخيلتي، كانت تقف مع رانيا الثرثارة التي يعرفها كل من بالجامعة، كانت علاقتي برانيا جيدة رغم أني لم أكن أتحمل ثرثرتها، إلا أنها طيبة وذات روح مرحة، ذهبت إليها بعد أن أصبحت لوحدها واستطعت أن أجمع بعض المعلومات عن تلك الفتاة، علمت أن اسمها

هدى، وقد انتقلت حديثا إلى الجامعة، بعد أيام اكتشفت أن منزلها يقع في نفس الطريق الذي أسلكه إلى المنزل، وهنا كنت قد أنهيت حكايتي في الحافلة لتبدأ حكاية أخرى مع هدى.

"الذاكرة أشد أنواع التعذيب فتكاً"

أدهم الشرقاوي

أتذكرين يا هدى

يرسل الله بعضنا البعض كالغيث، وكنت غيثاً، كنت الشمس التي تضيء حياتي، والقمر الذي يرافق سهري، لا أعلم كيف حدث وأحببتك إلى الحد الذي ليس له حد، وأنا الذي كنت وحيداً ولا أقبل أن يشاركني أحد أشيائي، لا أعلم كيف وقع ذلك، فالوحيدة التي كنت أشاركها أشيائي كانت هي أمي وبعد وفاتها أصبحت مكتفياً بنفسي، ولم أبحث عن شخص آخر يحل محلها، لأني كنت متأكداً بأنه لا يوجد من سيغرقني في حبه كما كانت تفعل أمي، تعالي أعود بك للبدايات يا هدى، يقولون أن البدايات للجميع، والقلة القليلة من يكمل معك الطريق، والبدايات كانت لكِ، فهل ستكملين

معي الطريق، أم أنكِ ستتركني في المنتصف؟ هذا ما سيفصح عنه حبر قلمي بين الحروف المقبلة.

أتذكرين يا هدى أول لقاء بيننا، كنت قد التقيتك في الحافلة ولا أعلم عنكِ شيئاً، ولكن بريق عينيك سحرني، ونظراتك الحانية خطفت قلبي، لم أؤمن يوما بالحب من أول نظرة، ولكني وقعت فيه، لم تغادري مخيلتي تلك الليلة وظلت صورتك عالقة أمام عيني، وفي الغد أردت أن أطرد طيفك الذي استولى على حياتي، لأني لا أحب أن أتعلق بشيء عابر، ولكن كان للقدر رأي آخر، فالناس في الحياة يمشون في دروب أقدارهم، وقدري قادني إليكِ مرة أخرى، فقد لمحتكِ في الجامعة، وجمعت عنك بعض المعلومات ومن بينها أنكِ انتقلتِ حديثا إلى الجامعة، كان القدر لا يزال يلعب بجانبي وأسقطك في الفخ لتكوني رفيقة لرانيا الثرثارة، صاحبة الروح المرحة، ومنها استطعت أخذ المعلومات عنك.

كانت تلك آخر مرة أركب فيها الحافلة، قررت أن أقطع الطريق من الجامعة إلى المنزل على قدماي، فلم أكن لأتحمل ذلك الألم الدي أقرأه في عيون ركابها، كنت أجد ذلك الطفل الصغير بداخلي يطير فرحاً وأنا أمشي وأتأمل الأشياء، وأنتِ أيضاً كنت تهربين من روتين الحافلة إلى المشي،

كان منزلكِ يقع في نفس الطريق الدي أشقه أنا، وهنا تعرفنا على بعضنا، لم أكن أنا المبادر بالحديث معك، فقد كان الخجل يكسوني، هذا الأخير الذي زاد من عزلتي، كنتِ أنت المبادرة، لأنكِ تملكين شخصية مندفعة، كانت تلك أول مرة أمشي فيها في الطريق مع فتاة، فكان الصمت رفيقنا الثالث، وبين الفينة والأخرى تطلقين سؤالا وأجيبك عليه بلهجة تكاد تكون متلعثمة، ويعود الوجوم ليسود المكان، وصلنا إلى مقر إقامتك، ودعتني بعد أن تبادلنا أرقام هواتفنا وذهبتِ، استمريت أنا في المشي قائلا في نفسي أنك لن تهتمي لأمري ثانية، فمن هذه التي ستهتم لأمر شخص خجول؟ فأنا دائما ما كنت الطرف الذي يظل صامتا حتى يقرر الآخرون التحدث معه، فقد كنت ولا زلت شخصاً عاشقا للوحدة، محب للهدوء، وغامض بعض الشيء، محب لضجيج الأمواج، وقليل الكلام، هكذا أنا، أخذت من الاكتئاب شيئاً، ومن التوهان شيئاً، ومن الفصام شيئاً، ولكنني لست مريضاً، وحتى إن كنت كذلك أو اعتقدتم أني كذلك، فأنا أحب مرضي هذا.

نسيت أمرك واعتبرت ذلك اللقاء هو الأخير لنا، ولكن كان لك رأي آخر، فقد جاء الغد لأجدكِ أمام باب الجامعة بانتظاري وأنت تعاتبينني وكأنك تعرفينني منذ زمن، قائلة لي:

-لماذا تأخرت؟

لم أجد جواباً لسؤالك المباغت واللامتوقع، وكان الصمت جواباً، وكنت تجدين لغة الصمت، وأردفتِ قائلة:

-هيا بنا.

حيث تكون السعادة والحرية يكون الوطن يا هدى، وكنت وطني، بل انتشلتني من مرضي الذي أحب، وضممتني إلى عالمك، وأثبتي لي أن الأشخاص في القلب بعمق الأثر لا بطول المدة، وهنا بدأ تعلقي بك وبدأت عقدتي حول الخجل تنحل شيئاً فشيئاً والفضل يعود لكِ، كنت أقضي الطريق كله في الكلام والضحك معك، وكأني أردت أن أعوض تلك الأيام السابقة التي لم أكن أتكلم فيها كثيراً، كنتِ تستولين على حياتي يوماً بعد يوم، وزرعتي في قلبي بذوراً باهتمامك وابتسامتك، وبعيونك التي كلما نظرت إليها سحرني جمالها، أما حبي لكي فقد كان كجنين خطيئة ستكشفه الأيام سواء طال الزمن أم قصر، كنت أعلم أنه بين منطوق لم يقصد

ومقصود لم ينطق تضيع الكثير من المحبة، لذلك قررت أن أنطق معترفاً بحبي لك، فقد نمت تلك البذور التي كنتِ قد زرعتها وأزهرت، وها أنا أبوح لك قائلا:

- أتمنى أن تكوني نجمة سمائي وهمسة شفائي وشمعة مسائي.

بادلتني نفس الشعور، وأصبح الجناح جناحين فحلق طائر الحب في سمائنا وهو يطلق موسيقى العشاق بزقزقته.

لطالما أحببت ذلك الطريق الذي جمعني بك يا هدى، حتى أنني لا زلت أتردد عليه، أتذكرين ذلك الحديث الذي جمعني بك تحت الشجرة التي كنا نحتمي من الشمس بظلها، دعيني أذكرك، كنا نتكلم في الحب، حدثك بقصص كثيرة حول العشاق وتضحياتهم وحبهم لبعضهم البعض، جاء الدور عليك وحدثني عن قصة زينب بنت الرسول صلى الله عليه وسلم وزوجها أبو العاص بن الربيع، لازلت أحفظ القصة بنفس الكلمات التي حدثني بها ذلك اليوم، بدأت حينها سرد القصة قائله:

"تزوج أبو العاص زينب قبل البعثة، ولما بُعث المصطفى بأمر الدعوة كانت زينب من أوائل المصدقين بأبيها، فذهبت بذلك القلب المليء بالإيمان وكلها أمل بأن يكون زوجها من أوائل المصدقين برسالة نبيها ووالدها، فما نهرها حين علم بإيمانها ولا عاتبها، بل قال لها بلسان المحب:

- والله ليس أحب إليّ من أن أسلك معك يا زينب في شعب واحد، لكني أكره أن يقال إنني خذلت قومي وكفرت بآبائي إرضاء لامرأتي، فهلا عذرتني يا زينب.

تقبلت قراره بكل تفهم أملةً أن يأتي يوم يكون فيه زوجها في صفوف المسلمين، لكن قريش أرادت من أبو العاص أن يطلق زينب ويزوجوه بمن شاء من بنات قريش، فرفض أبو العاص ذلك لحبه الشديد لزوجته فبقيت زينب عند زوجها وكل واحد منهم على دينه، ولم يكن في شريعة الإسلام حينها نص حول التفريق بين الزوج المشرك والزوجة المؤمنة، وأتت الهجرة النبوية فهاجرت عائلة زينب كلها إلى المدينة، لتبقى هي مع زوجها وحيدة في مكة ولا تتراجع عن قرارها في ملازمته، وإن كان قلبها ممزقا بين الأب والنبي من جهة، والزوج والحبيب من جهة أخرى، وجاءت اللحظة التي حمل فيها زوجها السلاح لقتال أبيها، فقد توجه جيش المسلمين

للقاء جيش المشركين في معركة بدر، وكان أبو العاص في صفوف قريش، انتصر المسلمون في تلك المعركة فقُتل من قتل وأُسر من أُسر وكان أبو العاص من بين الأسرى.

بَعت أهل مكة فداء لأسراهم وأرسلت زينب في فداء زوجها قلادة كانت أمها قد أهدتها لها في زفافها، فتعرف النبي صلى الله عليه وسلم على قلادة خديجة رضي الله عنها ورق قلبه لإدراكه أنها لزينب فداء زوجها، فتحدث النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه قائلاً:

- إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها فافعلوا.

وأُطلق صراح أبو العاص بعد أن طلب منه النبي أن يبعث زينب إلى المدينة، فقد نزل الأمر الإلهي بالتفريق بين المشرك والمؤمنة، فوعده أبو العاص بذلك."

كانت القصة جميلة وازدادت جمالاً وأنت تنطقين كلماتها، ولكن كنتِ قد نظرتِ إلى ساعة يدك فنهضت مسرعة وأنت تقولين:

- غداً سأكمل لك، إلى اللقاء.

فما كان مني إلا أن أنتظر الغد بلهفة لأعلم باقي القصة، فقد كانت من أفضل ما سمعت في حياتي.

لا أعلم هل أستطيع أن أصف مقدار حبي لك أم لا، كل ما أعلم أنني أحبك حباً شديداً حتى أن يدك فوق يدي تصبح قطعة مني، حتى أنك تنامين وأنا أحلم.

رأيتك من بعيد وأنت واقفة بانتظاري، كانت علامات الاحتجاج قد ارتسمت على وجهك وأنت تلومينني على تأخري، اعتذرت مراراً وأكملنا الطريق وأنت تحكين لي تتمة القصة:

"عاد أبو العاص إلى مكة فوجد زوجته بانتظاره بعين دامعة، فيقول لها:

- لقد طلب أبوك أن أردك إليه لأن الإسلام فرق بيني وبينك.

فما كان من زينب إلا أن تطيع أمر ربها دون اعتراض، هاجرت زينب إلى المدينة وافترقت عن أبو العاص ما يقارب الست سنوات، مكثت في بيت النبوة، وأبو العاص انشغل بالتجارة ولم يقاتل في أي معركة ضد المسلمين، وقبل فتح مكة خرج في تجارة لقريتين، فصادف في طريقه سرية من سرايا المسلمين فأصابوا ما معه وفر هو منهم، وبعد أن وصل الخبر الى الرسول صلى الله عليه وسلم أرسل الى السرية قائلا لهم:

- إن هذا الرجل منا حيث علمتم، فإن تحسنوا وتردوا له ماله فإنا نحب ذلك وإن أبيتم فأنتم أحق به.

فردوا لأبو العاص ماله ثم ذهب إلى مكة فأدى إلى كل ذي مال ماله، تم قال:

- يا معشر قريش هل بقي لأحد منكم عندي شيء؟

فقالوا:

- لا قد أديت ما عليك.

وقال:

- فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، والله ما منعني من الإسلام إلا خوفي أن تظنوا أني أردت أكل أموالكم.

فهاجر إلى المدينة وذهب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأعلن إسلامه وطلب رد زينب فردها له النبي، فعاشت معه حتى ماتت ومات هو بعدها."

مرت ست سنوات، وكان بإمكان زينب أن تتخذ لها زوجاً بعد الفراق، وكان بإمكان أبو العاص أن يتخذ له زوجة بعد الفراق، ولكنه الحب الذي يجعلنا لا نرى سوى من نحب، وهكذا ختمتي تلك القصة التي استقرت في قلبي.

لازلت أتذكر حضنك الدافئ يا هدى، كنت قد حدّثك عن أمي، قلت لك أنها كانت صديقي وأخي وأختي وأبي، أمي كانت تحمل في داخلها كل هذه الشخصيات، وكنت أحكي لها كل همومي لذلك أنا وحيد بعد فقدانها، كانت الجندي المجهول الذي يسهر الليالي ليرى ضعفي ويطبب علتي، لم أشعر بالدموع إلا وهي تنسكب من عيوني، مسحتها بظاهر يدك، وعانقتني وأنت تهمسين في أذني قائلة:

- لا تبكي أنا معك.

شيء ما في داخلي كان يطير فرحاً لقربك مني رغم الدموع، وشيء آخر كان يقول:

- لا أحد يعوض الأم.

تعالي يا هدى أذكرك بيوم آخر، يوم ربيعي باسِم غردت فيه الطيور وتمايلت فيه الأغصان والأشجار، وابتسمت فيه الأزهار، كان يوم عطلة، وكنت أجلس وأنتِ في الحديقة المجاورة لمنزلكم، وقلت لي سائلة:

- هل ستتركني يوما؟

أجبتك قائلا:

- إن لم تفعلي أنت فلن أتركك أبدا.

-فقلتِ:

- وهل هناك من يترك قطعة منه؟ هل هناك من يترك قلبه؟ حتى وإن اخترت أنت الرحيل فلن أتركك تذهب، سأتشبث بك إلى آخر نبض في هذا القلب.

غريب أمر الحياة يا هدي، تجمعنا بأشخاص لا نعرف عنهم شيء، فتجعلنا نحبهم حد الجنون، فنصبح أحبة وعشاقا، ونَعِدُ أنفسنا أنه ما من شيء سيفرقنا غير شهيق لا يتبعه زفير، ثم يأتي موقف ما، ويأبي أي منا أن يتنازل عن كبريائه، فنمضي كل منا في سابلة ونحن مثقلون بألم الحب، وننتظر صباحا نفتح فيه هواتفنا فنجد رسالة اعتذار من الطرف الآخر، ولكن ليس هناك من شيء غير أن نفتح دفتي كتبنا ونفرغ فيها كل ما ألم بنا، فهي الوحيدة التي قد تسمعنا بدون أن تقاطعنا.

أنا لم أختر الرحيل يا هدى، بل أنت من فعل ذلك، لا أعلم ما الذي جعلك تصبحين هكذا بين ليلة وضحاها، غدوتي تتجاهلين رسائلي التي لا يكاد يكون بين الرسالة والأخرى عشر دقائق، هاته الدقائق التي تمر علي كأنها ساعات من الانتظار، كنت بارعة في جعلي خارج حياتك، بعد أن كنت

ملكاً لقلبك، وبعد أن وعدتني بالبقاء والوفاء، ها أنت ذي ترمين بي خارج موطني، بعد أن جعلت من قلبك الصغير مسكناً لي، أصبحت أشعر بالغربة، لا لم لأغادر البلاد، لكن ثمة وطن كبير غادرني فأنت لم تكوني مجرد شخص عادي، بل كنت وطنا كبيراً أسكنه وحدي ولم أشعر فيه يوما بالوحدة.

يقولون يا هدي أن الاهتمام الزائد والإهمال الزائد، يؤديان إلى نفس النتيجة، ألا وهي خسارة الشخص الذي أحببناه، فما أجمل الاعتدال، أعطيتك كل الاهتمام وأعطيتني كل الإهمال ولم أكن لأتحمل ذلك، أتبثي لي أنه لا يوجد هناك اهتمام وحب كحب الأم، وبعدكِ كرهت أن أهتم بأحد، فحين أهتم أشعر بأنهم يتغيرون، وكلما زاد الاهتمام زاد التغيير.

يقولون يا هدى، حيث يوجد الحب يوجد الفقد، وها هو الفراق يطل علينا من بعيد، وها هي كل الوعود تضرب بعرض الحائط، أسمع طرقاً على الباب فأتفقد من الطارق، فإذا به الفراق قد جاء ليضع حداً لعلاقتنا، أو أظن أنه جاء لينصفني، لا أدري لما وهبتني إياكِ الحياة ولما انتزعتكِ مني، لا أعلم ما الدرس الذي أرادت أن تعلمني إياه الحياة من خلالك، ولا أعلم لما

هي دروس الحياة قاسية، أم أن لهفة البدايات انتهت، وانتهى الحب معها، فالانبهار ينطفئ حين يكتشف الشخص كل ما يمكن اكتشافه، كيف هي حياتك الآن يا هدى؟ هل أنتِ أيضاً تتذكرينني بين المدة والأخرى؟ أم أنك نسيتني ونسيت كل شيء جمعني بك، ورميتي الماضي ورائك تاركة فيه أطلال شاب، أما أنا فقد عشت معك شعور أول شيء من كل شيء، وهذا يكفي لأتذكرك دائما، تعود بي الذكريات إلى آخر رسالة منك، كانت تحمل القليل من الحروف والكثير من الألم الذي لا زال يسكن قلبي، وهي من وضعت حداً لعلاقتنا، (وداعاً) هكذا قلتي لي، ولم تعلمي أنه لا شيء ينتهي بمجرد أن قلتي وداعا يا هدى، هناك عشق يبقى متحجراً كدموع بين المقلتين، هناك وجع يستقر بأبعد نقطة في الوتين يا هدى، هناك ذكريات تضع بعض الملح على مواطن الجرح، وهناك ماضٍ يطاردنا في كل مكان، ووعود ظلت تنتظرك لكي تفي بها، وابتسامة ظلت مختبئة تنتظر صاحبها، وأحلام سحقت قبل تحققها، وعشق لم يتزحزح مكانه قط، لا شيء ينتهي صدقيني وقد ينتهي كل شيء، ووحده الحب يبقى، سمعت يوما شخصا يقول لصديقه:

"فلتقع بالحب مع شخص يرى حزنك مصيبة، وفرحك مسؤولية، واحتوائك واجب، أو عش وحيدا،"

ها أنا ذا أعود وحيداً، أعود إلى سابق عهدي، وأعود إلى مرضي الذي أحب، والذي أخرجتني منه من قبل، أعود إلى وحدتي وانطوائي بقدمين أجرهما جراً، فيستقبلاني بأذرع مفتوحة إلى آخرها، أجلس وأتأمل كما كنت أفعل، فأفكر في مساحات السكينة التي وسعتها في داخلي يا هدى، ها هي الآن تصغر وتنحصر وتعود كما كانت، مجرد ذرة لا تمتد ولا تتغير، أخمن لو ظلت تلك المساحات تتوسع وتمتد، لتمتد معها أيام السكينة أكثر، أصبحت أبكي متعمداً لعلي أنزلك مع دمعة من دمعاتي، وأدع قطرات المطر تنزل علي لعلها تغسلني منك، وأكتب كل ما مضى وكل ما ظل عالقاً بي منكِ في ورقة، وأحرقها أملاً أن أنساك، ولكن مفعولكِ قوي.

قبلك كنت متصالحا مع نقصي ومرضي، أما الآن فلم أعد أتحمل، هذه الوحدة تخنقني، هناك فراغ لا يملأه إلا أنت يا هدى، تمنيت أن يسقط سور العزلة ويتلاشى الحائط الذي يفصلني مع الآخرين، فقد كان في ملامح وجهي من البراءة والوداعة ما لا يخفى وما يستحق التعاطف معي، ولكن انعزالي حال بيني وبين هذا التعاطف، فحلت المساحات ولم يبادلني الآخرين إلا التوجس والحذر.

تمت